وارد بدر السالم

المِعْدان

مكتبة
الفكر
الجديد

من كتب
عبير الربيعي

المِعْدان

وارد بدر السالم

قصص

الطبعة الثالثة 2015

سطور

المِعَدان

وارد بدر السالم

AL Ma,dan

Wared Badr al Salim

الطبعة الثالثة 2015
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07905219996 - e.mail: bal_alame@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف وارد بدر السالم، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988،
ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق: 435 لسنة 2015
First Published by Dar Sutour for Publishing and Distribution
Baghdad- Iraq- Al Mutnabi street- Jadeed Hassan Basha Entry
Revised copyright © Dar Sotour and Wared Bader al Salim, The right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

Cover Design & Lay- out by: Mohamad Hayawi

هدّم بيتك وابنِ قارباً،
اترك ممتلكاتكَ وتشبث بحياتكَ..
خذْ معك في القارب بذرةَ جميع المخلوقات الحيّة..

ملحمة جلجامش

إلى: فرجة آل نعمة العواجي
التي هي... أمي

في البدء..

«مي إيدن»فردوس مستمر

لا اعرف على وجه الدقة موقع قريتنا الآن. وليس بمقدوري تحديد خط العرض الذي تقع عليه، الامر الذي جعلني أراجع عدداً من المصادر الجغرافية. وأغلبها مصادر أكاديمية. إلا أنني لم أعثر إلا على إحالات واحتمالات، وفي واحدة من تلك الإحالات عثرت على اسم محتمل لقريتنا وهو»مي إيدن»وقد ورد ذلك في مؤلف قديم طبع سنة 1811 لمؤلف مجهول.

ولم تسعفني المصادر الكثيرة في الاستدلال على موقع قريتنا. ابتلعها فيضان عارم وغاصت في الاهوار وانطوت كل أخبارها وبمرور السنوات نُسيت كما تُنسى عشرات القرى المتوحدة في عزلتها فتموت وتندثر. ومع هذا لم يتملكني اليأس، واستناداً الى ذاكرة طفولية قديمة راجعتُ خارطة العراق الادارية، فلم أعثر إلا على مستنقعات فسيحة وجزر متباعدة أو متقاربة وقرى حديثة لا أهمية لها.

تمليتُ، في محاولة أخرى، خارطة العراق السياحية وأطلس العراق، فلم أجد أيضاً غير خطوط زرق رفيعة ودلالات

دائرية تشير كلها الى أماكن معروفة في جنوب العراق، ثرية بكنوزها المائية ومستعمراته النباتية الكبيرة....امتلك حدساً، ربما هو يقين غامض، من وجود قريتنا وسط أدغال البردي وفي قلب المياه، فالرواة المعمرون قادرون على وصفها وصفاً دقيقاً وتحديد مكانها بين الأدغال وحُزم القصب الاخضر ويصفون مآثرها السالفة ويتذكرون المصائب التي مرت عليها.

إنّ قرية مثل قريتنا لا يمكن لها ان تختفي وتندثر مهما تعاقبت عليها صروف الزمان وتوالدت في اعطافها كوارث الحياة، فقد تختفي زمناً بفعل ضاري، إلا أنها سرعان ما تعاود الظهور في كامل عافيتها في تلك الاسفنجة الخرافية التي نسميها:

«الهور»وتكرّس يقينها بثقة عبر وجودها المنبعث من جديد، فتنمو كما قُدر لها ان تكون وتنتشر في تلك الاسفنجة العظيمة كحقيقة ثرية، حتى نجدها في أيامها الخضلة مسكونة بالحكايات والمواقد والرموز والعجائز (الذاكرات) والأحفاد الذين سرعان ما ينبت تحت أنوفهم عشب ندي، والطيور والدجاج والمشاحيف والبردي والبخور والمسك والزعفران والزيزفون والأبوذيات والتمائم والسّلال والكرَب والجريد والطرايد وأحجار السليماني والودع والزبرجد والرضواني والزاج والخضر.

كما نجدها مسكونة بأزكى الروائح من القرنفل البري والسدر والزنابق والمسك والعرعر وما يطلع من الماء ويطفو عليه، تعود هكذا، دافقة بالحياة، مكتنزة بحضورها المهيب، تعود مقتربة من يشِن محدّبة وتنشر كلابها الضخمة بانتظار عوائها

الطويل، ومن يدري! فقد يباغتها فيضان غادر ويملأ عروقها الماء! لهذا فأنا أتحرق شوقاً الى طميها وغرينها وطلاسمها. إلى بيوت الطين فيها، وتنانيرها وسعفها ومحاريثها ومواقدها وجواميسها وأعلافها وخنازيرها ومناقير طيورها وسموم أفاعيها وأسماكها وأحجارها المطمورة وروثها..

اشتاق الى رجالها الفارعين بعيونهم المستديرة ووجوههم الصلبة. وإلى نسائها الباسقات بمفاتنهن المشدودة الى رغبات جامحة لا مثيل لها.... والى خلودها المائي الدفاق.

هكذا هي الومضة الخاطفة لقريتنا. أريد أن أقترب من تفاصيلها وارسم المشهد الاكبر لشكلها وكيانها. وفي كل ومضة أجد مفردة، وانا في سبيلي الى جمع المفردات فلعلي استطيع إزاحة الضباب من ذاكرة الكتب وذاكرتي وذاكرة السنوات الغرقى لأجد «مي إيدن» مزفوفة بالطراريد والمشاحيف.

ربما هو حلم!

اعرف انه لم يكن سهلاً على رجل حالم مثلي، أو واهم ربما.. أن يجد قريته المندثرة في مساحة ستة آلاف ميل مربع من المياه والقصب والبردي والعزلة، كما أنه ليس بوسعي ان أجد، ثانية، تلك الرؤى الباهرة التي عقدت في داخلي ملحمة الألم وارتعاشة الحياة ومثابة التكون الاصيل وبدء الجغرافية المعطرة بزفرة الاسماك وهواء الصباحات التي تستيقظ عادة على أظلاف الجواميس،.

هذا ليس إقراراً نهائياً.. لكن على المرء ان يغامر دائماً ويبحث عن المجهول فيما يوفره له المعلوم ويكتشف أبجدية المعلوم في أسرار المجهول ويضع نُصب عينيه أنه يقوم بعمل خطر

في بحثه عن المجهول والمعلوم في المعلوم والمجهول، لان السر الاكبر، كما قال جدي مرةً، يكمن في الجذر! ويضع نصب عينيه تماماً أنه إنما يحاول إنقاذ بني جنسه من خراب التحضر ولوثته، وعلى وفق هذا، وربما هو اجتهاد..... ربما هو مغامرة..... ربما هو فراغ..... وربما هو جِد.....

وعلى وفق اي اعتبار فأني جندت نفسي للبحث عن قريتنا في الادغال والمياه والكتب والذاكرات، منقاداً وبحماسة وراء شيء افتقده في رحلة مضنية محفوفة بالمتاعب... لكنها لذيذة الى الحد الذي اتصور فيه نفسي الآن جالساً على حصيرة متآكلة في صريفة عمتي»بدرية»وأمامي يمتد الهور بآفاقه المائية الخضراء وأمامي تتخاطف المشاحيف والبراكش والطراريد، واكتب إليكم قصصاً عن المعدان، القصة تلو القصة في حلم يقِظ يغمرني بالأمل والسعادة والكبرياء.

انه طواف قروي متصل يقودني الى مسالك وعرة ومجاهيل غامضة فأين هي»مي إيدن: إذن!

إن كنت أجهل موقعها الآن فلأن تضاريس حياتنا اشغلتني بيوميات متقاطعة وأنستني لغة الريح الصافرة بين خِصاص القصب وهي تنسج وهج ابوذية خافتة تمزق صدر رجل يخوض في الماء بحثاً عن امرأة الخلود وعشبتها الريفية... ولكنني أتذكر بالضبط شكل الاشياء الفريدة في المسالك المائية والحرثات الزراعية وفي غزوات عشائرية مبهمة تتواصل في الليالي الحالكة، وأهجس دائماً سراً ما في البشن المحدّبة بترابها المتفتت وأكاد أرى جوهراً غائباً في بطنها.

«لم اشأ ان اسأل عن ذلك الذي يتشكل في رأسي دون أن أعيه»

أكنت قادراً على السؤال؟! أكان أحد قادراً على الاجابة!؟

أنه وعي دائري مبكر أعترف بمشقته ومشقة السؤال والجواب، ولا بأس من طرح الشكوك، ففي هذه اللحظة تستدرجني ذاكرة الطفولة الخضراء بقوامها النحيف الذي يشبه طائر»البرينجي»وأرى جدي بجذعه العملاق الممتلىء وأطرافه الطويلة العضلة ورقبته الغليظة النافرة العروق التي يثبّت عليها رأساً مربعاً بملامح قاسية جداً!
كان من يرى جدي في لحظة من لحظات تجليه وهو يقف في قمة الإيشان يصيبه الفزع حقاً! فذاك الجذع العملاق لا بد لمن يراه أن يشعر أنه أمام فحل أسطوري.
وفي المساءات التي أراه فيها معتلياً حدبة الإيشان، يتحتم عليّ ان أرقبه بفضول وهو يقف بجذعه الفائض متملياً وجه السماء الفسيحة متمتماً بدعاء لم أفهم منه شيئاً، كان في أعلى الإيشان ممدوداً بجذعه الفريد، حتى خلت انه يقف على رؤوس اصابعه لانه كان يتطاول مع لحظات المساء القدسية، بل خلته سيطير في أية لحظة الى أفق مجهول.....
كان يفعل ذلك دائماً في أوقات الغروب وكنا بضعة صبية نلعب بكسر فخار تستخرجها من سفح الارض الطالعة من رحم الماء والتي كان ترابها أسود سريع التفتت. وكنا نتبارى في استخراج أي شيء: كسر فخار شذرية اللون او شديدة الزرقة. وقطع طابوق اخضر لامع وبقايا فؤوس واشياء نحاسية صدئة بأشكال دائرية وأصابع حجرية اسطوانية وخرزاً ملوناً مثقوباً؛ هكذا ننشغل بآخر لحظة من لحظات المساء ثم نرمي كل ما وجدناه في الماء؛ بعد ان ينهي جدي آخر تمتماته ووجهه شاخص الى السماء كما لو كان يحاور شخصاً شفافاً لا نراه، عندها يهطل المساء بكل ثقله على

الحافات المائية ونذوب في ليلنا الوفير بالنجوم، فنغفو على أحلام ماء كثيرة...
كان عليّ أن أتذكر ذلك الآن. وكان على ذاكرتي أن تستدرجني قسراً الى منابعها الاولى، لأجد بعد اكثر من خمسة وثلاثين عاماً إنّ ما كان يفعله جدي من طقوس مسائية على ظهر الإيشان، إنما هو صلاة مباشرة بينه وبين الإله، وإنما كان يعتلي معبداً قديماً هو افضل ما يقربه الى الخالق!
هكذا استجيب لذاكرة الطفولة الأثيرة وأحثها على استقطاب كل ما يمكن استقطابه من تلك الرؤى الباهرة لأغوص في قاع عريق وأعيد ترتيب اوراقي واجمع ثانية تلك الكسر الفخارية والاختام الاسطوانية والاقراص الدائرية الصغيرة والاصابع الحجرية وخرز التعازيم والرقى والافلاك المدفونة في اليشن التي مرت عليها طفولتي المعمّدة بماء الاهوار في تلك الآماد التي اسعى اليها الآن جاهداً ومجتهداً في البحث عن قريتي التي ضاعت وسط خرائب السنوات، وما أفعله الآن شاق وعسير ومؤلم، فالنبش بهذه الطريقة مهمة حرجة قد تؤدي الى الخطأ وستكون معجزة إنْ وُقفت في الاستدلال على موقع أثير يعني الخلاص في احد وجوهه..
لكنها محاولة اولى، وارجو ان لا تكون الاخيرة، في الوصول الى النبع الصافي ومسك البصمة الاولى المنقوشة على قطعة طين حر، ويقيناً فان بي حاجة الى لغةٍ خضراء واصابع من قصب لأخط حرف»المِعدان»الاول في ذلك الفضاء السومري المجدول من ضفائر الشروق المبارك والغروب الاثير الأعزل المتفرد بمكوناته الاسطورية وبدائيته الغامضة. بي حاجة لفهم اسرار الجغرافية وخطورتها في تحديد المواقع،

لأعود إلى مستنقعات التكوين الاول وأغطِس صحراء العمر المغشوش في رضاب الاهوار، إنها محاولة طفولية لإستدراج لُعاب البردي وندى الجولان، فلعلّ»مي إيدن»تتشكل ثانية بنقاوتها الخصيبة وتمنحني رؤى متحركة تعينني على اكتشاف ما يمكن اكتشافه في اشتباك المعلومات وتقاطع الروايات واختلاف التفسيرات وكثرة الرموز والشفرات المبثوثة في الكتب الحجرية، ولعل مي إيدن تنبثق في صورة جديدة وتزيح عن عمرها الطويل أطلالها الثقيلة، أما اختفاؤها بهذا الشكل القسري فيستدعي مني البحث المتواصل والدوران المتعب من نقاط الانغلاق مستنجداً بالارث الفخم الذي تركته لنا واستعين بالتاريخ والرواة والحكايات والكتب القديمة والمخطوطات الحجرية والطلاسم والجغرافية، بكل شيء يُمكنني من العثور على قريتنا وإعادة الحياة الى اوصالها المشتتة في اليشن والمياه الشاسعة التي تمتد على مساحة آلاف الاميال المربعة! ربما ستسألون... ولم كل هذا البحث المضني؟!

لا اعتقد انني سأجيب تماماً على هذا السؤال، فقد علمتني المعدان ان اتستر وراء مفرداتها واغترف من منهلها ما شاء لي الاغتراف، ولا اكتشف سراً حين اقول ان المعدان كانت نقطتنا الاصيلة وحرفنا الاصيل، وكتابنا الاول واعود في الدوران اللانهائي، وأقول لقد تعاقبنا على الحياة فيها اجيالاً بعد اجيال فكانت تتكوّن بفرادة وتكتسب جغرافية عفوية بريئة وتكرّس تاريخاً متراكماً في اسراره، وأزعم انها كونت فينا ولنا حضارة ومنحتنا إرثاً ووعياً ناضجاً عبركل مراحل صيرورتها.

ولا أدعي ذلك كله، إلا ّ لأنني أعي ذلك، عبر أكثر من

وسيلة استطيع استنطاقها والتدليل على محتواها، ومع هذا فانا أعول كثيراً على فطنتكم ووعيكم في قراءة التاريخ القديم بشكل خاص وإثبات ذلك كما فعل السيد»غافن يونغ»في كتابه (العودة الى الاهوار) والسيد»ليونارد دوولي»الذي وجد الطراريد السومرية بشكل نماذج فضية في اطلال مدينة أور الملكية.

وكتاب»الحاج ريغان»لفلانين الذي عاش أياماً سحرية لا تنسى في بيتنا والسيد»ثيسنغر»في كتابه الممتع»قصبة في مهب الريح»وجورج رو في»العراق القديم»وجون اوتيس ودياكونوف و د. كورني زبرجرود. و د. لتيزن.

وكما فعل ل كنك في (تاريخ سومر واكد) ومواينسر في (تاريخ بابل) وديلابور في (وادي الرافدين) وصموئيل كرمر في كتابه المعروف (من ألواح سومر) وربما كان هؤلاء المستشرقون يكتبون مذكرات ومشاهد سياحية ويقومون بأدوار الأساتيذ أمام هذا العالم البدائي الجاثم في الأدغال والمياه ، إلا انهم كانوا ينبشون في التاريخ، يستحضرون الإرث المطمور ويستنتجون علامات بارزة في هذه الحياة الباقية منذ ستة آلاف عام كما فعل»غافن يونغ»في كتابه آنف الذكر، ولا عجب فأني أبحث عن»المعدان»بهذه الطريقة وأمامي الأسانيد اللازمة كلها والتي تدعم حقيقة وجود قريتنا المقدسة التي ربما ضاعت واندثرت أو بقيت منها بعض الشواهد، ذلك انها، وكتحصيل طبيعي، تكونت في داخلي ببراءة دون ان اقصد التحضير المسبق لها؛ فالفكرة بريئة في أول تكونها وعظيمة في مراحلها التالية إذا ما اكتملت وصارت حقيقة فنية لها قوة الحضور والتأثير والإقناع في فضائها الغرائبي الواسع.

(المعدان) هي فكرتي المؤرقة، لانها قرية المثابة الاولى، والحرف الاول والاصبع الاول الذي غمسته في الماء.
ولا عجب في أنني وجدت إصبعي الاول وحرفي الاول.
وكان على رجل مثلي مثقل بحبه لقريته أن يتوازن بين ماضيه القروي وما يحمله من شخصيات ورموز وبين حاضره الهجين الزائف. وأن يجند نفسه لانتشال براءته ويغذ السير في البحث عن مرفأ تكونه الاول..
هذه العملية المزدوجة قد تكون مكلفة بحسابات الحقيقة الفنية، وبمعايير الشروط الابداعية، لان قريتنا. التي قد تكشفت لي بعض ملامحها الآن. موسومة بسمات جغرافية، تاريخية لا مناص من الاقرار بها. وهذا يتطلب. السعي الجاد والحثيث لإيجاد مداخل صحيحة للبحث عن سر وجودها اليقيني واختفائها اليقيني ايضاً على مر العصور.
وربما الجهد الشخصي لا يوفربعض المتطلبات التي يراد تحقيقها... وربما الذاكرة الطفولية لا تحقق ايضاً ما نسعى اليه... وربما الكتب الكثيرة التي كُتبت عن تاريخ العراق القديم والحديث والمترجم منها بشكل خاص لا تشترط علينا ان نقر ببعض تفاصيلها ولا تُلزمنا بالشك او اليقين... لكنكم قد تقترحون علينا مطالعة المخطوطات القديمة المتخصصة والكتب الحجرية النادرة، وقد فعلنا ذلك، إذ قضينا اسابيع طويلة في مركز المخطوطات ومثلا في المتحف العراقي ونبشنا في الكتب المهملة، ثم كلفنا بعض الاساتذة المختصين في بعض جامعات القطر انطلاقاً من علاقتنا الودية معهم، فما كان لما ما نريده تماماً.
ولكن كل هذه الالتماعات قد توفر قدراً من الاجتهاد في

وصف ملامح قريتنا وشكلها وطقوسها وفرادتها وسحرها وتقاليدها وعاداتها وزوالها المستمر وحضورها المستمر. ومتغيراتها الاجتماعية والطبوغرافية والتاريخية والسكانية والنفسية على مرّ القرون.... واعتقد ان المهمة ليست بمثل هذه السهولة...
لكنها فكرة على اية حال.

1991

القسم الأول

أشجار البرغش

لا تتميز قريتنا عن قرى المعدان الكثيرة إلا بطنينها الصاخب، وذلك بوجود اعجوبة قديمة وغريبة توارثناها جيلاً بعد جيل. و ُلِدنا وكبرنا وخلفنا أجيالاً توالدت بعدنا ووُشمت اسماؤها في شجرة العشيرة المباركة، مُشيرة الى ان قريتنا تكبر دائماً مع الزمان على ضفاف هذا الطوق الصارخ، واشجار البرغش، أعجوبة الزمان، حقيقة من حقائق الحياة التي نعيشها.

نفختْ رؤوسنا بطنينها الضاج ليل نهار، فامتدت خيوط حياتنا متشابكة ومشتبكة بين قصب السنوات وهي تنمو على مضجّة هادرة من طنين البرغش الذي يتناسل في تلك الاشجار المنتشرة على ضفتي النهر الدائري، حيث تقع قريتنا في هذا القوس العاصف الذي يكاد يكون مغلقاً إلا من فتحة تقع على طرفي حدوة، هي حدود تلك الاشجار الشيطانية، حين تدور مع دوران النهر ومن ضفتيه على شكل حدوة حصان، فتبقى فتحة ليست ضيقة على كل حال، هي ممرنا الوحيد الى الاهوار والريح النقية والفضاء الفسيح والقرى الاخرى ونافذتنا الى حياة الصيد والرزق والصمت

الذي نحتاجه دائماً، فذلك الطنين المُلح في كل الاوقات وكل الازمان يشبه اصواتاً مختنقة لا تكف عن الانتهاء ذات يوم.
وما من احد كان قادراً على ان يتصور ذلك، أن نعيش لحظات بلا طنين ولا خوف من تلك الغيوم الرمادية الحانمة فوق هامات اشجار الشيطان، الغيوم التي تدور ساعات طويلة في فضاء القرية قبل ان تتناثر على الاغصان الجرداء وتلتصق بتلال البرغش المكومة كصخور، وعندها نكون في اقصى درجات الاستفزاز لو ان ريحاً تهب لتدفع تلك الغيوم المفترسة الينا بطنينها المفزع كي نسارع الى الاحتماء بصرائفنا ونقفل أبوابها الخشبية ريثما تمر غيوم البرغش وتعبر الى الجهة الاخرى فتلتحم مع تلك الجهة.
لقد اتعبتنا هذه الاعجوبة الغريبة التي ألقى بها الزمان في بقعتنا الخضراء وهجرتنا قرى المعدان القريبة لانها لم تعد تستطيع احتمال الطنين القاتل، لنبقى وحدنا مع ايامنا الطنانة بذعر حقيقي من تلك الحشرات التي تلدها الاشجار وتتوالد وتتفرع الاغصان الشجرية، فنعرف إن البرغش يتناسل بحرية كل يوم ويتفاقم طنينه المخنوق مع قوس النهر الذي يحيط بقريتنا، وتتبعه الاشجار الغريبة ثم تتوقف في طرفي الحدوة حيث ينفتح الهور من ممرنا الوحيد وتترامى غابات القصب الاخضر والعشب المسفوح في الآفاق البعيدة، وينفتح الصمت المرين على تلك الأمداء النضرة، فنتلمس غضاضته بعيوننا المتخاطفة، نتمناه أن يزحف اليها، عبر ممر النجاة، وينام بيننا للحظات، يمسد أحلامنا المرتبكة بأصابعه الطويلة، لكن امنياتنا الصغيرة تُبددّها مضجة البرغش وغيومه الرمادية التي تطاردنا إن هبت ريح الظهيرة، فتتقشر الجذور

المحرشفة عن سحابات صغيرة من الحشرات وترف ملايين الاجنحة الدقيقة بطنين مخيف ورائحة جائفة، ويبدو كما لو ان الاشجار على وشك ان تطير هي الاخرى او تتحوّل الى سحابات لزجة، تتفتت متمايلة وهدير البرغش عاصفة مخنوقة، مثل ملايين الاصوات الصارخة المختنقة التي قد تنفجر في أية لحظة.

هكذا ينمو العذاب في اوصالنا منذ زمن لا نعرف بدايته، لكننا نعيش حالته المدوّخة ونمارس طقوس حياتنا من تلك الفتحة التي تقع على حافة النهر، بين طرفي الحدوة، داخل القرية او خارجها بشعور قد يبدو أيفا للغرباء الذين يأتي بهم صراخ الاشجار مجرى النهر القادم من الاهوار، أو تأتي بهم اعجوبة الزمان التي كُتب علينا ان نكون بينها منذ زمن غامض.

لم نفكر مرة واحدة ان نلجأ الى ارض اخرى، ما من احد قال ذلك. لا يجرؤ احد ان يترك القرية التي زرعنا في حلمها بذور حياتنا وطيبّنا هواءها بريح انفاسنا اللاهثة من اجل ان تكون هي قيّتنا التي نحفظ بها وصايا التراب وحكمة اجيالنا المنقرضة التي ماتت في أدغال الهور برصاص الغرباء واللصوص أو بحثاً عن صيد يدفع غوائل الجوع في شتاءات قاسية البرودة.

ما من احد قال ان نرحل الى ارض ثانية. وما من احد قادر على فعل شيء يدرأ به عذاب الاشجار المتمايلة بأكوامها وتلالها الحشرية الهادرة التي لا تصمت ابداً وهي تحيط بنا كالطوق على قوس النهر:

حدوة الحصان التي تنمو اشجارها وتعلو وتحجز عشرات من

امتار الفضاء وهي تستطيل وتمدّ أذرعها المكتسية بالبرغش على مر الشهور والسنين:
حدوة الحصان التي تحمل اشياء ملحاء غريبة الاشكال والمكونات وهي تقف على حافات النهر الدائري وتعصف بطنين لا بد لمن لم يسمعه من قبل ان يصاب بالخوف والذعر..
هكذا هي قريتنا تتميز عن قرى المعدان بهذه الفرادة المدوخة، وهذه الاشجار التي لا احد يعرف، حتى شيوخ قريتنا الطاعنين في الحياة، كيف تلد البرغش، وكيف تنمو على اكتاف نهرنا الوحيد، مزينة بعصف الطنين، حتى اتبعت رؤوسنا الدائخة بمشوار الحياة. وافسدت علينا متعاً بهيجة بعدد السنين التي مضت والتي ستمضي بهذا الصراخ المختنق؛ برفيف تلك الاجنحة الرمادية الملتحمة على شكل غيوم جرداء تهدد قريتنا دائما، بعد ان قتلت منا بضعة رجال ونساء وصبيان وجواميس وأبقار، وفضحت ما فضحت من امور معيبة كانت تجري سراً في النهر او في الاكواخ.....
تلك هي الجثث الفاطسة لسبع جواميس وثلاث ابقار، نراها منتفخة او مبقورة ولا احد يقترب لجرّها وإبعادها عن القرية، ومثلها جثث كلاب وضباع وذئاب وخنازير، وكل ما يلقيه الهور الينا يلقى حتفه بين فكوك اشجار البرغش، وما تزال في حظائرنا اغنام وجواميس مجدورة تأكل لحم ظهورها واجزاء من بطونها حين تروح لترعى قريباً من حزام الاشجار المفترسة.
ولو لا مساحة الامل التي نطل منها على الحياة لحوصرنا بالهدير الجنوني ولقتلنا صراخ أطنان من البرغش يُسمع

على بعد مئات الامتار كدوي متصل.... يجذب كل ضال ويوصله الينا مهما كانت المسافة، الى قرية الطنين واشجارها الشاذة حيث ولدنا هكذا، على هذه الريح الحشرية وقبلنا، منذ مئات السنين، ولد اباؤنا واجدادنا من افخاذ وحمائل وبيوت ماتوا هنا ورؤوسهم منتفخة باصوات ناشزة عُمرها اضعاف اعمارهم، ماتوا وفي قلوبهم حسرة على سر اشجارنا المحشوة بالحشرات وهي تتناسل في قريتنا فقط ومن زمن ربما كانت فيه هذه الارض عراءً متوحداً ملفىً في البرية، في وحشة صابرة قبل ان تسكنه اقوامنا الاولى وهي تزحف هاربةً من هجير الصحراء بحثاً عن ملاذٍ يحيطهُ الماء وينمو في جنباته العشب الوفير، فكانت مساحة برما هي بحجم الكف بيننا الذي تهيأنا لان نولد في رحمه الخصيب متعاقبين في الحياة والموت.

وإذا ما نسيت قريتنا، في زحام السنوات، حوادثاً واحداثاً مرّت وتركت ندوبها واورامها موشمةً في جسدها، فان ذاكرتها لن تنسى ابداً أعجوبة الزمان هذه، وستبقى تروي، بعدنا، للنهر فضائح ما كان لها ان تحصل في قريتنا، لتشعرنا بالعار احياناً وبالخجل احياناً وبالحيرة في كل مرة.

وتروي للريح والنجوم والهور ودغل السنوات القادمة اشياء مفزعة عن اشجار البرغش التي تكاثرت بشكل عجيب وكبر طنين حشراتها المتوحشة حتى ملأ الأسماع النائية المنزوية في اعماق الهور، بل ازدادت شراسةً وهي تتفرع وتشتبك بينها وتمد اغصاناً برغشية جديدة.

في صباح بارد ونحن في الاغفاءة الاخيرة بين هدير الطنين شق استكانة القرية صوت بشري طويل، كان صراخاً رجولياً

مبتاعاً ظل هكذا لوقت غير قصير، خرجنا فزعين مع أول الشمس ورأينا رجلاً غريباً ألقى به الهور في نهرنا الدائري، تحاصره أسراب من البرغش وتهاجمه غيوم كثيرة بطنينها المخيف، وكان الرجل يكافح بيديه ورجليه وكل جسمه إلا ان الغيوم المتفرقة سرعان ما تجمعت في غيمة رمادية جبارة وهت عليه كمطرقة حجرية وألقت به على الارض.

ومن الاشجار الاخرى هبت سحابات جديدة تصرخ صراخها المخنوق وقبل ان ينهض الرجل الغريب وهو لما يزل يصرخ طوقته اسراب جديدة من كل جانب واخترقته واخذت تدور عليه بسرعة لا مثيل لها بعصف يذيب الاعصاب، ورأينا رفساته الاخيرة بعد ان خفت صراخه حتى تضبب جسده في عيوننا بسبب النسيج القاتم الذي صنعته الاسراب المفترسة في لحظات غير معقولة كان فيها زمن الرجل يتلاشى وينتهي وهو يصعد، كما نراه مندهشين، في هذا النسيج الحشري المفزع الذي حمل جثة الرجل امام اعيننا الى هامات الاشجار، حمله البرغش بملايينه التي نسجت حوله نسيجاً محكماً، وخلال لحظات مدهشة ومفزعة صار الرجل جزءاً من شجرة وصار بمثل لونها وكأي شيء مكور هناك.

كان ذلك الصباح عكراً زادت فيه مخاوفنا ونحن نرى الرجل يختفي في اعلى الشجرة، غطاه البرغش واخذ يفترسه بلا شك، وعندما اخذنا نتفرس بالاشياء المكورة في الاشجار دار بخلد كلٌ منا ما فقده من اغنام وابقار وجواميس وكلاب من غير تلك الجثث الفاطسة عند اقدام النهر.

ما كان لهذه الحادثة ان تمر بصمت دون ان نكون قد تركنا الكثير من المسافات التي لا نقترب منها بعد الآن، بينها حقول

للشعير والبرسيم. حتى راح كل رجل في القرية يحسب حسابات جديدة وهو يرى قبر الرجل المغطى بالحشرات على رأس شجرة من اشجار البرغش فنصاب بخوف حقيقي. نرتعش لمثل هذه النهايات الفاجعة. نرفع رؤوسنا الى السماء نبتهل بضعف وعيوننا منهمرة ببكاء بشري حزين: إلا إن السماء كانت تجيبنا بحادثة ثانية بعد شهر، إذ راح ضحيتها ثبي، هو إبن فزّاع، كان يركض وراء جرو صغير قاده الى حلق الطنين فطوقته الاسراب المتوحشة وحملته هو والجرو الى شجرة وغطتها بعباءة من الحراشف الملحاء وصارا كأي نتوئين في تلك الاشجار.

وامام هذه الحوادث الغريبة غمرتنا غيبوبة حقيقية شلت قوانا. أما رؤوسنا الداوية بالطنين فلم تعد تفكر بأي حل. بعض الأسر حملت ما خف حمله وهربت من ممر الطنين في ليالٍ سوداء وكان هذا عاراً ما بعده عار، شتمنا من خلص بجلده ووصمناه بثلم شرف القرية وشرف العشيرة، وما كان لغيبوبتنا ان تستمر حتى شرختها حادثة كان لها وقع مؤلم في نفوسنا، بل هددت بعضنا لبعض.

ولولا حكمة الرجال من كبار السن لامتلأ النهر بالدم ولطارت رقاب رجالٍ ورجالٍ، فإحدى ظهيرات الغيبوبة حملت لنا عويل امرأة وراء اشجار البرغش، عويل فاجع، فقلنا ان امرأة من نساء القرية جرفها مدّ النهر وطوقتها اذرع الشيطان تلك، لكن تبعها صراخ رجل بعد لحظات مريرة وكان الرجل ينادي باسماء بعض رجالنا، كان هذا يحدث في مجرى النهر، بين ضفتيه. وكانت تلك الاسراب الرمادية تعلو وتهبط بانقضاضات متتابعة، مثل نسور مفترسة كمن

تنقر شيئاً ما في النهر. كان العويل المفجوع يختلط بالصراخ المرير، صاح احد رجالنا، هوذا صالح، وتساءلنا: ومن هي تلك المرأة!

كانت اسراب البرغش تزداد على شكل غيوم لها طنين متوحش وساحق، ملأت فضاء النهر، وانتبهنا الى ان نتوءات وحدبات وتكويرات في تلك الاشجار قد تلاشت وتحولت الى اكوام حائمة من البرغش اتجهت كلها الى النهر، وبعد وقت، بدا عصيبا وقاسياً خفت العويل والصراخ ثم رأينا غيوم البرغش تجتمع كلها وتلتحم في غيمة سوداء مهولة حجبت جزءا من الشمس، فسقط ظلها على نصف القرية.

هبطت الغيمة السوداء بطنين مدوٍ فأحسسنا إنا نهبط في قاع ساخن مرتعبين لهول ما رأينا: ارتفعت الغيمة من النهر وهي تسحب جسدين بشريين كفا عن العويل والصراخ واستسلما للجذب المدوّي وكانا يرتفعان بارتفاع غيمة البرغش بكامل طولهما حتى رقدا رقدتهما الابدية فوق احدى الاشجار وغطتها تلك الاسراب التي عادت تتزاحم بين الاشجار، ورأينا نتوءات وحدبات وتكويرات جديدة تنبع من الاشجار.

وكانت هذه الحادثة فضيحو بحق، لقد عرفنا المرأة... هي.... غررّ بها صالح في ظهيرة حارة. صعدت معه في مشحوف صغير واستسلمت لدبيب الدماء في جسدها الناضج، ولابد انها غفت في بطن الزورق وغفا هو الاخر، وربما شغلهما لهاثهما الطويل حتى قادهما الى حتفهما اللامعقول.

فتدارك الرجال هذه الفضيحة وقالوا ان الله عاقبهما على هذه الفعلة النجسة، لكن والدها هجر القرية في ذات الظهيرة الساخنة، لتكون هذه الفضيحة بداية جادة تخرجنا من هذه

المحنة، والبداية لم تنجح برغم استعدادنا لها، حيث تجمع كل رجال القرية وجمعوا بنادقهم الموزر وحتى بنادق الصيد ذات السبطانات الطويلة ورأوا ان يهاجموا الاشجار بالبنادق لحرقها، فتجمعت ألف بندقية في يد ألف رجل قرب حقل من الشعير يطل على اشجار الموت، وكان يوماً كبيراً للقرية ان يجتمع رجالها لحرق الخطر، كان الرال قريبين من الروائح الفاسدة، يرون غيوم البرغش الحائمة والاشجار التي تتمايل بحركة الحشرات الدائبة، وعلى بركة الله اطلقنا اول الف اطلاقة دوت في سماء القرية بقوة فمرقت في تلك الاشجار كما لم تمرق في تل من القش، طارت اسراب صغيرة من اليرغش ثم حطت في اماكنها، ثم كررنا الف طلقة اخرى والفا ثالثة، رمينا بجنون ونحن نرى الشرار ينطفىء في اشجار القش تلك وليس هناك شيء كؤثر سوى اسراب صغيرة تطير بحجم قبضة اليد ثم تحط.

رمينا وقتاً طويلاً وبشكل غير معقول فبدا كأننا نرمي على الريح. عدنا خائبين مستسلمين للطنين المخنوق ولايامنا الطويلة المقبلة بانتظار اي مجهول غامش يمنحنا بركاته ووصاياه ويمضي الى المجهول، لعل الطنين يخفت لنزيح من رؤوسنا دوياً هادراً وشم فينا منذ مئات السنين فورثناه طائعين، ولعل الرائحة الفاسدة تجف في مياسم الاشجار او تغير اتجاه هبوبها كي نشم ريح الهور الخضراء النقية، وما كانت امنياتنا سوى امنيات، نقولها وننساها في فضيحة جديدة مؤرقة تكشفها لنا تلك الحشرات فندوخ في تفاصيلها ونحاول ان نحمي رقاباً قد تطير بحد الخناجر.

ونقتنع البعض بالحلم والتوقي والصبر وقبول مصائب الله

وامتحانه الذي وضعه لنا في اعجوبة ما كانت مثلها اعجوبة في كل عصور المعدان.
ولا بد لقريتنا ان تكابد كما كابدت من زمان مجهول وتحتمل هذه الكارثة التي لن تتكرر ما دامت الحياة تنبض بالريح والاشجار والانهر وغابات القصب والطيور. ولا بد لنا ان نتقبل الفضائح القادمة مهما كانت فاحشة، إذ من المعقول ان يحدث مثل هذا في قرية لم يمنحها الطنين المتوحش فرصة ان ترى نفسها على ضفاف النهر وامام ريح الاهوار الفسيحة.
وان تتمرأى في نجوم لياليها الوامضة بالسحر والدعوات السرية والامل والمكتظة الاحلامالبنفسجية، لا بد من قبول اي شيء، حتى فضيحة»سليمة»نسيناها كما تعودنا ان ننسى اشياء كثيرة. فلا ندري لماذا لم تستطيع سليمة ان تحتمل اكثر من الشهور السبعة التي قضتها مترملة بعد وفاة زوجها المسلول!
هكذا هي الفضائح، تأتي من رغبة سرية وحلم خاطف، حتى تصير شيئاً معلناً وواقعاً قبيحاً يترك وراءه اثراً من عار واثراً من أسف، فلقد شوهدت سليمة ذات فجر ترتفع وسط الغيوم الطنانة بعد ان شبعت من العويل والصراخ والاستغاثة، رفعتها اسلاك البرغش وركنتها فوق احدى الاشجار وصيرتها حدبة شاخصة لمن يريد ان يراها، فيما ظل لقيطها يصرخ نصف نهار على حافة النهر حتى مات.
كلنا رأينا اللقيط على بُعد ملفوفاً بعباءة صوف رجالية، صرخ نصف نهار حتى مات. ولم يفترسه البرغش! وكان هذا شيئاً غير معقول، وتساءلنا:
ما الحكمة من ذلك؟ قال الرجال الطاعنون في الالم: حتى

ترون فضيحتكم يا اهل القرية!!
ولك يكن كثير من اهل القرية في حالة سوية ابداً، فليس هناك ما هو امرّ من العجز والخوف المستديم والاستسلام البليد، بل ستزداد المرارة في حلوقنا ونحن ننتظر المزيد من الفضائح والمشاكل والمزيد من الذين يعلقون فوق الاشجار في غفلة غير مقصودة او غيبوبة معرشة في دوي الرؤوس اليابسة، حتى يصيروا نتوءات او حدبات فوق اشجار البرغش.
وكانت الكثير من قرى المعدان تقدم لنا المشورات والنصائح بترك القرية والا فان قبورنا ستصير على تلك الهامات الحشرية البشعة.
لكن، ما من احدٍ يقبل بترك القرية، نتشبث بها دون ان ندري لماذا. ولو كان بمقدورنا ان نحمل قريتنا بارضها ونهرها الى بقعة اخرى لما فعلنا ذلك. يشدنا اليها هوسٌ سري. وجنون قديم. ننتمي الى احلامنا العتيقة يوم كانت فضاءً ونهراً وريحاً نقية في اعظم عزلة برية. يكفينا عار الفضائح المتلاحقة.
امام المشورات المتراكمة لرجال المعدان القادمين من قراهم الخضر، قال لنا احد الغرباء الذين جذبهم الطنين ذات ظهيرة: لقد حلّت بكم دعوى سيد صالح من اولياء الله قُتل غدراً على ضفة النهر.... فسارعنا لان نفتش في ذاكرة القرية عن ولي قتيل لكن لا احد يذكر مثل هذه الواقعة..... قال الرجل الغريب:
إنها»شارة»ولي من اولياء الرحمن قُتل غدراً على ضفة النهر ذات زمن ربما بعيد. فقلنا ما ذنبنا نحن الاحفاد الذين لم نقتل سيداً صالحاً من اولياء الرحمن! وما ذنب ابنائناالذين سيكبرون ويتوالدون ويرثون تاريخ القرية وهذه اللعنة تكبر

بينهم وتهدد مصائرهم في كل لحظة!
وما كان احد يعرف ان يُجيب وكان لابد ان تكثر الاقاويل وكان علينا ان نسمعها ونصدّها ونبحث فيها عن مخرج مقبول، فإذا لم نكن قد قتلنا ولياً من اولياء الله فما ادرانا من زنى بأخته ذات زمن بعيد لتلد منه ثلاثة اولاد لا بد ان نسلهم النجس يمتد بيننا الآن!
وما ادرانا بمن سرق مؤونة قرية صغيرة في زمان القحط فتسبب في فنائها! وما ادرانا بالذين ينكحون نساءهم من مؤخراتهن؟ وما هي سلطاتنا ان نجعل الناس تصلي ليل نهار وتذكر الله ولا تسرف وان تبحث عن الستر وتأكل الرزق الحلال!
وهل ندري بالذي ضاجع امرأة حائضاً في فناء احد الابنية الدينية؟! هكذا تقول الاقاويل، وهكذا يتفنن الغرباء بحبك مثل هذه الافعال لاجدادنا. ونحن امام هذا اللغط نزداد يأساً وتنغلق في وجوهنا كل احتمالات قدرتنا لفعل شيء ما قادر ان يوقف هذا الرعب القادم من اشجار البرغش، وامام قلقنا المتفاقم وتعاظم مخاوفنا كانت تطرح امور يائسة لرجال بدوا مهزوزين جداً، لم يقدروا ان يتماسكوا اخيرا فكانوا يقدمون على انتحار فريد، وقد فعلها واحد.
احرق نفسه امامنا وركض الى الاشجار، لكنه سقط في منتصف الطريق. وعندما اطفأناه كان ميتاً. ومثله رجل آخر كان في حال ٍ ليست سوية ً ابداً، وكان يقول انه لا بد ان يعرف سر اشجار البرغش.. لا بد ان اعرفها.
اثنيناه عن عزمه. لكنه بدا متوتراً. يبرق من عينيه يأس خالص. أفلت منا وركض صارخاً كالمجنون وعندما عبر

حقل الشعير كانت بانتظاره غابات الطنين. وحشرات الشيطان بغيومها التي لا تستريح، هجمت عليه وهو ما يزال يركض، وعندما دخل نسيجها الرمادي رأيناه يصارع الكتل الطائرة ويهوّم بيديه صارخاً بملء حنجرته، حتى ادركته غيمة سقطت عليه كصخرة، فتعثر إلا انه نهض بصعوبة وواصل ركضه الى النهر وكان بارعاً وهو يقذف بجسمه الى النهر مخترقاً الحشود الحشرية التي لمّت تشتتها فوق الاشجار واغصانها، فيما بقينا ننتظر عودته من حدود الحصان، ممرنا الوحيد الى الخارج، وعاد مفزوعاً بعد وقت بدا لنا دهراً، دار مع النهر وخرج مبللاً ولاهثاً وفي عينيه رعب العالم، كان وجهه مبرقشاً بالبثور تنز منه دماء رفيعة. وفي خديه شقوق طولية كأنها خمش اظافر، ظل ثلاث ليالٍ يصارع آلاماً رهيبة وهو يصرخ كامرأة. وكان يهذي ويصيح ان هناك ابراً ناعمة مزروعة في وجهه وتم علاجه بمراهم من شحوم الجواميس وروث الابقار وبصاق احد سادة قرى المعدان.

لم يصدق انه ينجو من افتراس اكيد. كان وجهه المجدور يزداد قبحاً كل يوم. وظل اياماً طويلة يهذي ويروي ان الطنين بين تلك الاشجار كان كافياً لان يزرع الفزع في قلوب اشجع الرجال، اما غيوم البرغش الطائرة فيقول ان لاجنحتها الرهيفة وشيشاً مخيفاً تُسبب ريحاً قوية تدفعه الى الامام دائماً وتبعث رائحة خانسة جداً كرائحة فطائس بشرية.

أما ضفة النهر فهي رخوة جداً وكنت ادوس على اكوام من القش لملايين من البرغش الميت... وما من رجلٍ قال شيئاً إلا فاعتكفنا على صمت حائر طويل ولم تكن فكرة «صيهود» تهم

احداً، قلنا له، على مهلك يا صيهود، لكنه صاح ومشعل النار في يده، العار. يا قرية المعدا لا بد ان نحرق اشجار الشيطان هذه ونحرق الماضي والحاضر، كان حازماً. تومض النار في عينيه وهو يشهر المشعل الذي صنعه من الجريد ولف رأسه بليف النخل.

كان يغطي وجهه بيشماغ مرقط ويلف جسده بعباءة جوخ، صحنا فيه، تمهل يا صيهود، ما هكذا تحل الامور. انك تنتحر وعلينا ان نتشاور، لاندري ماذا قال: إذ كان صوته مخنوقاً داخل اليشماغ، كان يرتعش، حجل مسرعاً باتجاه اشجار البرغش التي كانت غيومها تطير باسراب متراصفة ودخل حقل الشعير ونار المشعل تتراقص في يمينه وحين لفه الطنين الصاعق هبت عليه اول عاصفة حشرية تلقاها بمشعله.

كان لا يريد ان يتوقف، لكن العاصفة الثانية ارغمته على الوقوف وهي تهوي عليه فصدّها بمشعله اليتيم واداره عدداً من الدورات الى كل جهة والغيوم تتراكض من الاشجار وتلتحم ببعضها لتصير غيمة رمادية، تراجع صيهود، كنا نعرف ذلك.

إذ لا مناص من التراجع، كان ينسحب بصعوبة كما لو ثمة من يسحبه الى امام، هي ريح البرغش التي قال عنها رجل النهر.

طوقته الغيوم وكانت نار المشعل على وشك الانطفاء حتى هوت عليه غيمة جبارة فتطشرت على رأسه وتناثرت ثم عاد نثارها والتم في غيمة جديدة، كان وقتاً قاسياً هذا الذي نقف فيه مشدودين بانتظار صيهود الذي سيحمله البرغش الى قمة شجرية ملحاء.

سيصرخ كثيراً، لكنه سيصمت ابداً. انطفأ المشعل وعاد الرجل راكضاً بصعوبة. والطنين يتبعه والغيوم تطوقه من كل جانب، هرعنا الى صرائفنا خوفاً من يتبعه البرغش الى هنا، لكنه وصل في اعلى حالات الخوف والرعب، سقط امامنا، دعكنا من على رأسه الملفوف عشرات الحشرات اللاصقة، كان يلهث ويرتعش، حررنا وجهه من اليشماغ وانزعناه عباءته، رأينا الرعب على شكل صيهود، شيء لا يصدق، كان يتمتم...

ريح فاسدة واصوات غريبة وآلاف العيون الصغيرة تتلامع بقبح لا مثيل له مثل عيون الطناطل والشياطين... كان كل شيء يصرخ.. تلك الاشجار التي ترونها افزعتني بصراخها المخنوق... وقال بعد ان هدأ، صدقوا، انه بالامكان حرقها.. لابد من ذلك... يكفي ان نحرق شجرة واحدة لتحترق البقية..... لم تكن هذياناته تعني احداً.

ينصرف الجميع لاجترار ما حدث ويغيبون في نسيان مُدمر وهذا شأنهم دائماً بعد كل حادثة وفضيحة.... يبحثون عن خبزة اليوم وينامون بلا احلام في مضجة الطنين الهادرة وينهضون على صوت صارخ لشخص اصطادته اشجار البرغش ويرقبون كالمشدوهين بافواه مغفورة الى ذلك الضحية الصاعد في نسيج الحشرات الى قمة من قمم الاشجار حتى يصير نتوءاً ضخماً تتناسل في تجاويفه المبقورة ملايين البراغش، وكان علينا ابداً ان ننهض دائماً مفزوعين لعويل او صراخ حتى نرى احدنا وقد جرته تلك الغيوم السرية الى مثواه الحشري.

ويوماً ما، كأي يوم عادي مليء بالكسل، نادت امرأة على

اهل القرية قائلة ان اغصان اشجار البرغش اخذت تطول من طرفي الحدوة وانها رأت شجيرات صغيرة تنمو الى جانبها، فقلنا انها محض اوهام ومحض قلق، ذهب بعض رجالنا لكنهم عادوا قلقين، لقد رأوا بالفعل شجيرات جديدة تنمو تحت ظلال الاشجار القديمة وكانت تكتسي بالبرغش، ورأوا أذرع الاشجار واصابعها تطول من طرفي الفتحة.
في يوم أخر عادت نفس المرأة تحشتم رجلوة الرجال، إذ كانت الفروع تطول والشجيرات تتقافز بين نهايتي حدوة الحصان، وخوفاً من ان يلتقي طرفا الحدوة فينغلق ممرنا والوحيد الى نضارة الدنيا وبهاء الاهوار.
كان الطنين يقترب مع الايام من هذه الفتحة. رأينا غيوماً من البرغش تدنو من فضائه، تطوف على شكل موجات وتلتم على الاشجار. وذات صباح استيقظنا على عويل النساء وخوار الرجال، هرعنا خائفين وعدنا اكثر خوفا، إذ لم تبق إلا فسحة صغيرة ستنغلق في هذا النهار حتماً.
لقد نبتت شجيرات كثيرة واستطالت اغصان الاشجار الكبيرة ممتدة كالجسور من طرفي الفتحة. فيما اخذت كتل البرغش تقترب بطنينها المدوخ. وكان يوماً مروعاً لنا. مرت ساعاته ثقيلة وعاصفة بالقلق والمجهول، ها هو مخرجنا الوحيد قد اغلق بعد العصر، لن نخرج بعد الان ابداً. لقد طوقتنا الاشجار واحاط بنا الطنين من كل جانب. انغلقت فسحة النجاة وتشوشت غابات الهور المترامية امام انظارنا الحائرة.
بكينا كما لم نبك من قبل على حياة ضاع نصفها في غيبوبة وسيضيع نصفها الآخر ويصير فريسة سهلة لهذه المخلوقات العجيبة او لايام الجوع القادمة. ربما اكتشفنا الآن، الآن فقط

جسامة الخطر المحدق بنا وهو يحيط بقريتنا من كل الجهات وكل المنافذ. بل يحيط بنا نحن، رجالاً ونساءً واطفالا وابقارا وجواميس وكلاباً تحرس حقولنا.
كان يوماً مريراً طعن نفوسنا القلقة ونحن نقف جماعات جماعات ونرى نهايتنا فيه بانغلاق قوس اشجار الشيطان على قريتنا... لم ننم ليلتنا. بكينا مثل النساء وشعرنا بضعفنا لاول مرة وانهيار رجولتنا امامنا. لم ننم في ليلة الموت تلك.
حرسنا انفسنا الى الصباح في سهر جماعي مؤرق والطنين يتعاظم من الفتحة المغلقة يذكرنا بفجيعتنا الحقيقية بعد كل هذه السنوات وبعد كل الفضائح والمآسي التي كنا نسترجها بصمتٍ وحزن كبيرين. عاتبنا بعضنا. وشتمنا اجدادنا الكلاب الذين زرعوا هذا البرغش الفاتك كأنما خلفوا لقطاء، وابناء عاهرات.
اجتمعنا مع الفجر، هذه اول مرة نلتقي بهذا الزخم البشري، كل القرية، كل رجالها الكسالى الذين برقت في عيونهم مخاوف حقيقية قادمة واستشرت في دواخلهم رعدة الحصار.
وكان الجميع يرتعشون لهذه النهاية المؤسفة وانقراض القرية الذي اضحى حقيقة لا جدال فيها، بسبب دعوى وليّ صالح او فسوقٍ قديم او اي شيء آخر، لكننا اخذنا نعاتب بعضنا بعضاً ونوزع اللوم علينا، إذ ما علاقتنا بما يفتريه الغرباء وما ينقلونه من تاريخ ماضٍ لا احد يريد ان يصدقه ولو كان صحيحاً، لم نكن نتلذذ بالعتاب والشكوى، ولكننا كنا نريد ان نزيح من دواخلنا اثقالا من الصمت لا نقدر على حملها بعد الآن، وهكذا تتابعت الايام المخيفة وكان الحصار جدياً:
لا احد يخرج من القرية. وهذا يعني انتهاءنا واحداً واحداً.

التقينا مرات كثيرة بكل زخم القرية. شدّتنا المأساة الى بعضنا وارعبتنا فكرة ان نموت هنا بشكل جماعي، رجالاً ونساءً واطفالا وجواميس واغناما وابقارا وكلاباً وقططاً وارانب ودجاجاً.
ارعبتنا فكرة الجوع الذي سيعصف بنا خلال الايام القادمة. فنضطر ان نأكل حيواناتنا اولا ثم اطفالنا. ثم نتقاتل فيما بيننا ونأكل لحمنا من اجل ان نعيش اياماً اخرى ونموت بعدها كالكلاب الجرباء. ما قال احد ماذا نفعل. لكن صيهود العائد من الموت ذات يوم والذي جرّب، بنوبة مجنونة، ان يهاجم اشجار البرغش بمشعل، أعاد الى اذهاننا هذه الفكرة، وقال ايضا، يكفي ان نحرق شجرة واحدة لتحترق البقية، نشجع بعضنا ونتآزر ونهجم بمئات المشاعل، رجالاً ونساءً واطفالا، ولابد ان نصنع لنا عدداً من الممرات.
كانت هذه الفكرة وحدها تُشعل فينا الحماسة: اذ من الممكن ان ننجح في هذا المسعى الذي لا خيار لنا غيره؛ ننفض عنا غبار السنوات القديمة ونشهر حريتنا بوجه الشيطان والريح الفاسدة والطنين الذي نفخ رؤوسنا بدوي لا ينتهي كما نعتقد.
التقينا على هواجسنا الخائفة مضطربين كما في كل مرة، لكن تقودنا فكرة النار الى الخلاص المنشود. النار التي ستشعل كل الاشجار وتفرقع جسيمات ملايين الحشرات التي ستتحول الى حشرات ضوئية مثل الشرار، تطير اسرابها ونحن نشعل كل الاغصان بمئات المشاعل ونشعل الرفيف والريح الفاسدة فتنحجب الشمس ساعات قد تطول.
والاسراب المحترقة تتطاير وتتساقط على صرائفنا فتحترق هي الاخرى. تشب فيها الحرائق فتلتهم النيران في غيمة

جبارة تتطاول في السماء حتى يذوب الطنين تماماً، يصير رماداً يختلط برماد القرية التي ستشتعل كلها هي وفضاؤها واشجارها ورجالها ونساؤنا واطفالها وابقارها وجواميسها وكلابها وقططها ولا يبقى إلا النهر الدائري الذي سيدور وحده زماناً طويلاً يروي رمادنا الذي قد تبزغ منه اشجار مباركة جديدة تستظل تحتها ذرية نقية تحفظ وصايانا وتسير بهدى حكمتنا التي وجدناها قبل ان نحترق.

1988 / 6 / 7

قصة الغياب

ما من احد يريد تصديق الحاج، إذ انه لا يمكن ان تحدث معجزة. وما من احد بمقدوره ان يصدق اية اقوال اخرى، مهما كان الثقاة الذين يروونها، فقريتنا ما تعودت على مثل ما اشيع ليلة البارحة، برغم ان الحاج رجل طيب وشهم، ومن الصعب عليه وعلى رجالنا ان يكون، حاشاه، كاذبا، ولو ان الامر ظل مقتصراً على ما رواه الحاج لكان بإمكاننا نسيان ما سمعناه واعتبرنا المسألة مجرد وهم او لبس وقع فيه الرجل شأنه شأن بقية عباد الله، فالحاج ليس نبيا كي لا يتوهم او يخطأ او تلتبس عليه رؤى متقاطعة، غير ان عبد الله البلام حلف برؤوس اولاده الستة انه اوصل»علي»الى بساتين اهله عبر الضفة الثانية وروى انه كان منذهلاً وهو يراه بقامته المربعة وصلعته اللامعة وعينيه المنفتحتين على دائرتي كحل تحيطهما تماماً كعيني والده رحمه الله. سلم عليه. عانقه واسرع به الى البساتين.

وعبد الله البلام كان حائراً مثل الحاج، يقسم باليمين ان عينيه لا تكذبان، فالوقت كان فجراً وباستطاعة المرء ان يرى الاشياء بوضوح... لم اكن واهما.. كان يقول للناس... كان

علي متعباً جداً. لم اشأ ان اتعبه بالكلام، بدا قادما من سفر بعيد احسست ان به رغبة عميقة للنوم، ظل مغمض العينين كمن يحلم ويطفو فوق البلم كطيف تائه حتى اوصلته الى الضفة الثانية....

ما من احد في القرية يريد تكذيب عبد الله البلام، لكن لا احداً يريد ان يصدق ذلك. ولو ان الامر توقف عند هذه الاقاويل لقلنا ان البلام واهم هو الاخر، لولا ان رجلا من قرية (المعدان) قال انه شاهد بعينيه الاثنتين علياً يمرق في سوق القرية معفراً بالتراب، يجري وراءه سحابة من رائحته المعروفة، وتطير خلفه اسراب من الزنابق البرية والشقائق الملونة.

واتته رغبة لان يحدثه، غير ان عليا ترك وراءه حفيف خطاه وكان اسرع من الريح، ومثل هذا الكلام الذي يؤكده رجل غريب عن قريتنا لابد ان تكون ثمة معجزة تحدث بيننا، وعلي الذي غاب عنا الى الابد، ابن قريتنا السبع، اليتيم الذي صنع فحولته من ذكائه الخارق وشهامته التي ما مثلها شهامة وأراح والدته من كدر الحياة وهم العوز، غاب كما تغيب الاحلام وذاب كالمطر.

ينسنا من عودته، لابد ان نمتثل لمشيئة الله سبحانه وتعالى، فالاقدار ليست لها مواعيد، والحياة على ما فيها من آمال شاسعة تبقى ظالمة هي الاخرى، تهوي بقبضتها على قحف من تشاء دون رحمة، وعلي غاب كما تغيب الشمس في يوم بارد، بحثنا عنه في كل القرى والبزايز، عاب منا ألف رجل في بطون الاهوار الفسيحة اياما طويلة، لكنهم عادوا دون ان يعثروا على بقايا ظل له، سوى رائحته المعروفة التي

تملأ كل الامكنة أينما حلت، فتشوا لادغال شبراً شبراً، دلفوا حتى في مسامات المياه، شقوا الامواج الخضراء وغاصوا الى مياسم الاعماق الغامضة واجتثوا جذور النباتات التي لا ترى الضوء ابداً فلعله يعتكف هناك، يختلي بنفسه ليعود باحلام جديدة وينثرها في بيوت قريتنا، لكن الألف رجل عادوا مثقلين بالاحزان وفي عيونهم أسى وأسف واسئلة قلقة، مكتفين بالحيرة والدهشة..

أيكون علي قد ابتلعته الارض!!

كنا نتساءل بيأس:

إذ ليست ثمة بارقة أمل تلوح في الاهوار، فالمياه لا تحتفظ بالغرقى اياما طويلة، ومه ذلك ظلت الامهات والزوجات والصبيات والارامل والعازبات يوقدن المشاعل على ضفاف الانهر الجارية كل غروب ويطرقن بأيد مرتعشة على الصفائح وينشدن ل»علي»الغائب ويتوسلن الى الريح ونثار الشمس الحمراء المترامية في الافق البعيد ان يعود رجل القرية وحلمها الجميل، فيما كانت باقات الأس تتناثر على الضفاف الحزينة، والرجال يصلتون بصمت وهم يترقبون آخر شريحة من الشفق الدامي وبانتظار غامض يعصف بنا جميعا:

رجالاً ونساء واطفالا واشجاراً وبيوتا وانهاراً وطيوراً ونخلاً واحلاماً وبساتين.والقرى كل القرى، مثل قريتنا، تمارس الانتظار المجهول وتناغي طيف علي وتجمع ما تبقى من رائحته الأليفة المطهرة وتبكي لغيابه اللامعقول.

بحثنا عنه في السماء أيضا. في كل الصباحات العذراء كان الرجال يتسلقون الفجر صعودا الى هامات النخل الطويل

ويبحثون عن علي، لعله تحول الى شيء لايستقر على الارض، يفتشون عن رجل القرية بين شعاع الفجر ونثار آخر الليل وبين مسامات الفضاء الرصاصي الفسيح.
أوصينا الطيور المتخاطفة، الذاهبة الى المجهول والقادمة منه ان تبحث معنا عن رجل شهم اسمه علي استيقظت القرية على غيابه ذات صباح عكر وكانت السماء متسربة بالغبار.
اعطيناها حفنة من رائحته المعروفة وشيئاً من احلامنا.
وانتظرنا اياماً قاسية اخرى، عادت الطيور بمثل احزاننا واستكانت على اعراف الشجر تهدل كل مساء هديلاً يشبه النواح، لتفجر فينا يأسا ما مثله يأس، لكننا لا نستكين ابدا. لم تبق امامنا غير الارض، نعم، قد تكون الارض ابتلعته بقدرة قادر وكل شيء جائز في هذه الدنيا.
وهكذا شمرنا عن سواعدنا ونحن نمسك المعاول والمساحي والخناجر والسكاكين متوزعين على كل مساحة القرية، على كل اطرافها الاربعة، نحفر من شروق الشمس حتى غيابها اياما طويلة دون ان يطرف لعيوننا جفن من التعب، حتى تحولت القرية الى اكوام عالية من الاتربة والتلال الرطبة وكتل الاطيان، فاكتشفنا في باطن الارض اربعة آبار وعشرة هياكل عظمية لرجال ماتوا في غزوات قديمة من غزوات الجوع او الثأر.
عثرنا على كوخ طيني يمتلىء بسلال من خوص النخل وآلات حديدة ومناجل صدئة مختلفة الاشكال وبنادق منخورة لم تبق منها إلا سبطانات متآكلة، عثرنا على منات الجثث لكلاب وذئاب وحمير وجواميس. وجدنا عشرات الجماجم لقطيع ابقار على ما يبدو وجثة رجل مهشمة في الطرف

الشرقي لقريتنا قيل انه في احدى السنوات البعيدة ضربت هذا المكان صاعقة مدمرة وفتكت براعٍ وقطيعه.
وفي اماكن قصية من القرية كان الرجال يحفرون الانفاق بحثا عن علي لكن المياه كانت تنبثق من باطن الارض دائما.... ينسنا اخيرا وهدّنا التعب، لا يمكن العثور على حلمنا. ضوء وانطفأ. موجة ابتلعها بحر كبير، استغفرنا الله كثيرا.
وكنا نعتقد ان الايام كفيلة ان تنسينا علياً لكن نواح الطيور يذكرنا به ابداً وهسيس الاشجار وانين الليالي الموحشة وخرير المياه التي تتعاظم على تقادم الليل ووحشة البساتين العطشى وذبول الاشياء الكثيرة.
وكنا نعتقد ايضا ان الايام كفيلة ان تنسينا مثل هذه الهواجس ايضا فهموم قريتنا كثيرة ومتاعب رجالها لا تنتهي في البحث عن لقمة العيش في الزراعة والصيد والغزو.
لم يبق امامنا إذن غير ان ننساه نحاول ان نفعل ذلك لكنه مستحيل. لا نجرؤ ابداً، فأحلام نسائنا فيه كل ليلة وكذلك اطياف رجالنا التي لاتنتهي جعلت من المستحيل ان ننسى رجلنا البار، هكذا وجدنا انفسنا نحلم به نحن والطيور والاشجار والبيوت ونتذكره في مجالس الليل حتى يطرّ الفجر، لا بد من ذلك لا بد ان يكون علي حاضراً، لا بد ان نروي شيئا عنه، اشياء، لا بد ان يكون حضوره بليغاً هكذا هي شيَم الرجال الاستثنائيين، وانها اكذوبة، ان لانتذكر علياً وانه محض وهم:
في كل مجلس. في قريتنا، في كل القرى، لا بد ان يكون علي في صحراء على فرسه البيضاء وهو يطوي موج الرمال بصدره المدرع عصف الريح الملتهبة، يطارد الحراب

ويفتح اظافره لجداول الماء، لا بد ان يكون في وحشة ادغال الهور المنعزل خلف القرى يغيب اياما طويلة ويعود محملا بسلال تكتظ فيها الطيور العجيبة والاسماك الرشيقة التي تطاول فسائل البرحي، يجيء ملطخا بالاعشاب والطحالب والأشنات، كما لو انه نبتت على جلده وعيناه المكحولتان تبرق فيهما قوة جذابة وصلعته اللامعة معشبة بنباتات لها رائحة البخور.

لابد ان يكون قد مرّ على كل القرى وسلمّ على اشجارها وطيورها وبيوتها وحقولها وترك رائحته على الاغصان وعتبات الاكواخ وفي مياسم الزهور وظلمة المضائف، لا بد ان يكون قد عاد الى الصحراء حيث مسقط رأسه وبداية صرخته البكر في البرية، على فرسه البيضاء وهو يرى صبية مثل الغزالة تذرع آفاق الرمل ضالة:

«من انت ايتها الصبية؟»

«وجدت نفسي هنا... أحدهم سرق قلائدي وخلاخلي وأقراطي. وتركني هنا اذرعُ الرمل وحيدة».

«لا بد إنك في حلمٍ أيتها الصبية»

«ربما أيها الفارس، اريد منك العون. لقد ابتعدت عن مضارب الأهل».

لابد ان يستجد لوالدته، هذه اللحظة او في أية لحظة قادمة او ماضية، تلك التي أراحها من كدر الحياة وهمّ العوز. يصلي لها. يركن رجولته المبكرة وينام في حضنها طفلا صحراوياً ويشم فيها رائحة النعناع ورائحة صحراء ملتهبة ورائحة فرس بيضاء تحمحم لمرأى غزالة وحيدة في الكثبان:

«أمي.. السنوات حفرت آثارها في عينيك».

«لقد حفرت في قلبي كثيراً يا علي».
«ما زلتِ أمي التي لا أنام إلا في حضنها البري».
«وانتَ ولدي السبع يا علي».
«ما حكاية سنواتك يا والدة؟»
«الإنسان يعيش لكي لا ينسى»
«هل أنت راضية عني يا والدة!»
«اجل.. حتى قبل أن تولد!».
«أمي... اشعر أنني رأيتك ِ قبل ولادتي!!».
«والدك زرعك في بطني ومات».
«ويوم كنتِ صبية؟».
«الصبا... آه... أتذكر كل شيء».
«ماذا تتذكرين يا والدة؟».
«... يوما ما كنت فيه صبية جميلة، هكذا يقال عني. كان يوماً كما الحلم. وكنت ممتلئة بالنقاء وصفاء الروح، وجدت نفسي بعيدة عن مضارب الاهل. جرتني خيوط الصحراء السرية فتوغلت خلف تلال الرمل حافية، كان الصمت موحشا إلا من رنين خلاخلي وقلائدي واقراطي فتبعت هذا الرنين الملائكي وانا سعيدة دون سبب اعرفه، منقادة وراء الرنين الروحي المقدس الذي احسه يتفجر من داخلي وحتى ساعات طويلة وجدت نفسي فجأة وحيدة في الصحراء.
ضاعت مني كل الجهات وكان المساء يقترب حتى شق الغبار الراكد فارس ملثم. اقترب مني. دار حولي دورات عديدة ثم سرق قلائدي وخلاخلي واقراطي دون ان يقول او يفعل شيئاً. توسلت اليه ان يرجعني الى مضارب العشيرة، لكنه تركني وحيدة وانطلق حتى ابتلعته الصحراء.... وبعد

وقت قصير وانا حائرة ومتوحدة، إذ ضاعت مني موسيقى الروح المقدسة، سرقها لص الصحراء، الملثم، وكنت اخشى ان يغيب النهار حتى انبثق من قلب الصحراء فارس جميل يمتطي فرساً بيضاء كغيمة ناصعة، سألني فاجبته، اركبني وراءه وانطلق مثل السهم... كان حلماً او ما يشبه الحلم وتلك الليلة غفوت هانئة ومستريحة وفي عيني صورة ذلك الفارس الشهم الذي احسست كما لو انه انبثق من رحمي....»

«ما الذي تطلبينه مني هذه اللحظة يا والدة؟»

«ماتت السنوات يا علي»

«اطلبي المستحيل يا والدة».

«فقدت كل شيء.. لم تبق إلا أنت يا ولدي، اتبرك بك وأحصي ما تبقى لي من عمر».

«أما رأيتني من قبل يا والدة! قبل أن أولد!!»

«اجل... اجل... رأيتك كثيراً!».

«أيام الصبا؟».

«نعم، يوم كنتَ ريحاً»

«هذه قلائدك وخلاخلك وأقراطك. هي معي منذ ذلك الزمان. ما زلت احتفظ بها».

«أعرف هذا يا ولدي».

«أنا الذي انبثقتَ من قلب الصحراء ذلك اليوم».

«اعرف هذا أيضا... لقد انبثقتَ من بطني يا ولدي عندما ضاعت قلائدي وخلاخلي وأقراطي، يوم كنت صبية احلم بالريح وزهر الصحراء».

لابد ان يكون علي قد طاف في كل مجالسنا، لا بد ان يحلم بنا جميعاً، فهو ابننا الذي لا يتكرر، مثلما نحلم به كل دقيقة. ما

عودَنا ان يغيب هكذا. ما عودَنا إلا على الحب يمر بأكواخنا وبيوتنا العتيقة.
ما وطأة قدماه شبراً إلا وانبثقت وراءه واحة خضراء تحفّ بها الاعشاب والطيور، حتى صارت قريتنا جنة فريدة حقا، وعلي يمتلك من السحر والجاذبية والنخوة والحلم والشهامة ما يجعله قديساً حقيقياً لقريتنا.
أجل هو قديس خالد وهذه القناعة هي التي ولدّت بنا رغبة ان ننشيء له ضريحاً ومزاراً ومثلما طالبت كل القرى البعيدة والقريبة. فالقرى لا تلد قديسا إلا مرة واحدة. وهذه المرة هي علي ولا شك، علي الذي لا يمكن برغم كل محاولتنا افرادا وجماعات نساء ورجالاً وحقولاً واشجاراً وطيوراً وانهاراً واهواراً وقرى وتراباً وماءً وسماءً واحلاما وامنيات، هذه الفكرة كان لها ان تكون يوم غد بكل تأكيد لولا ما قاله الحاج ولولا المعجزة المحتملة التي يؤكدها عبد الله البلام الذي حلف برؤوس اولاده الستة، وما قاله رجل من قرية المعدان، بل توالت التأكيدات من رجال اشراف واجاويد لاسباب معقولة وغير معقولة.
كان علي يمرق كما الريح، يأتي ولا يأتي، يخطف بيننا متعجلاً. كلنا رأيناه اخيراً يطير في سماء القرية بجناحين كبيرين من ضوء، يطوف على الاشجار والاكواخ والبيوت والانهار صحنا به: علي. يا علي. نريد ان نشمك ونبوسك يا علي. لقد عذبتنا يا رجل الرجال.. اهبط إلينا لحظات، تعال يا علي، جفّ ضرع القرية يا رجل.. امنحنا بركاتك وامض. لم يبق احد في القرية لم يره، كلنا رأينا الضوء الذي يتوهج في كل فجر وكل غروب. هو علي، يطير في سماء القرية،

يضيء نفوسنا بالبشر والأمل، وذات مساء رأيناه يحط على قبر أمه وكان يبكي، شاهدناه ينثر على قبرها اقراطاً وأساور من ذهب وخلاخل سمعنا رنينها الصحراوي يملأ الآفاق. وقلائد تشع كشموس صغيرة. صلى على قبر الوالدة الضريرة، فخرجت اليه متلفعة بكفن ابيض بهر ابصارنا بنصوعه. رأيناها كلنا، صبية فريدة الجمال. عانقته وكانت تبكي وعيناها المكحولتان تتوامض فيهما اشياء لا نعرف اسرارها. البسها علي حفنة من القلائد والأساور والخلاخل، وقبل ان تختفي عنا طار حزينا وجناحاه الشفافات يصطفقان بعصف عجيب.

وفي الفجر التالي مرّ بنا مسرعاً، ترك رائحته التي تشبه رائحة البخور او الاضرحة. ثم كما عرفنا، رأته القرى البعيدة والقريبة يحوم على سطوحها كالنسر بجناحين كبيرين من الضوء يطوف حول الحقول والبساتين والانهار والمضائف والمجالس.

لم يقل احد انه كان يبكي. ولم يقل احد انه كان سعيداً. لكن البهجة كانت عارمة وهي تملأ النفوس. وعليّ بحضوره الضوئي الطائر كل فجر او مساء كان كفيلاً، بجعل كل القرى تنام مبكرة وتستيقظ مبكرة من اجل ان تتمرأى بإطلالته البهية ومن اجل ان تتطهر بظل جناحيه المفروشين كعباءتين من ضوء وتصلي لاجل الحياة التي صيرها علي باهرة حتى اقترحت علينا كل القرى وهي تعيش المسرات القدسية. اقترحت ان نبني لرجلنا العظيم ضريحاً ومزاراً في السماء.

1988 / 4 / 10

مشحوف

دفعته موجة بحجم عضلة الساق، انبثقت من باطن الماء وشطرت ظل مقدمته الغاطس الذي يشبه عنقا بلا رأس. بدأ مستسلما لهذا الدفع الخفي، فتهادى على السطح الساكن مكوناً اذرعاً مائية رفيعة الحافات، ظلت تتوالد من التحام حيزومه المتقطر والتقائه بصدر الماء ثم تتفرق الى جانبيه متتابعة كأسواط شفافة آخذة بالتفتت وهي تصطدم بسيقان البردي الباشطة وحزم القصب المشعر المتلاصق بكثافة والذي يصنع جدارين مرتفعين بقامتي رجلين، من يمينه وشماله، وبظل واحد يسقط على الماء منخوراً ببقع شمسية لامعة كفقاعات ضوئية تطفو على السطح الساكن، وقد يكون ثمة ظل آخر إلا أنه يترامى على الرؤوس المعقودة او المتفرقة لنباتات متساقمة تنبعث من دغل كثيف يحتشد فيه صفير متقاطع وهمهمات مخنوقة لحيواتٍ لابدة او اشياء غير معروفة في هذه المملكة المجهولة المعزولة في مكان ما، في الوقت الذي يعود ظله المتشظي الى التماسك.

تعود اجزاؤه المتناثرة وتلتم لتصنع عنقه الذي بلا رأس بفعل تلاشي الاذرع الشفيفة. يعود عنقه الى انتصابه الاسفل، داخل

الماء، فقد بان عليه انه سيقف بعد ان أدخل حيزومه الشاخص في قبضة القصب، إذ صفر الفراغ من حوله وذابت يد الريح في هذه الظهيرة البعيدة داخل الممر الضيق الذي يبتدىء من فم مجهول خارج القرية ولا ينتهي عند حد واضح في عزلة غريبة قطعها بفعل عاصفة خلاص عنيفة منذ ليلتين، كاد يغرف فيها مرات وهو يترنح على الماء، بين القصب والدغل، قبل ان تلقي به في ممر مظلل ذي رائحة مائية حارة، مسكون بفراغ صاف.

ذكرته بصيد بعيد وغزوات محمومة للثأر والسرقة. لكنه بدأ الآن يستكين الى ألفة القصب ويميل قليلا حاجزاً جزءاً من الماء المعشب ذي الرائحة الفتية القديمة. وكان بالإمكان ان يقف مادا جسده على السطح المبقع بالضوء ويرتخي الى لذة السكون المدفون في بقعة الخلاص المجهولة ويعيد ترتيب أنفاسه في انعتاقه اللامعقول: لولا لبطة مفاجئة نطت قريبا من خاصرته وجعلته يخرج حيزومه من شق القصب دائرا دورة كاملة ثم يعاود انحداره البطيء صوب الاشياء ولكن بشكل معكوس حيث صار ظله الغاطس متجها الى الشمال: ثمة القرية والذاكرة المعمرة عبر حفنة سنات ثقيلة، بينما اخذت نهايته ذات القبضة المثلومة تنحدر ببطء مكونة اذرعاً اكثر سمكاً انبثقت من تحته جارفة في انتفاخاتها المتتالية السريعة قشاً رطباً وبقايا مجذوذة لنباتات سحرية متناهية في الصغر واوراق زهر مائي شفيف وجذوراً ضعيفة تشبه الخيوط المفتولة: كانت نابتة في القاع الرقراق ذي المرآة الخضراء الناصعة وتكشف بانزلاقها المتمهل قبعات الشمبلان المنتفخة وهي تطلع من قاع المرآة الخضراء قاطعة بُعداً يغطس

فيه (مردي) بطوله، كما تجر معها بعضاً من اشعة الشمس الساقطة على جلدة المرآة. ثم تعيدها الى اماكنها بعد لحظات قصيرة حالما تتفتت في أنصال البردي. وفي تفتتها السريع، لم تبق إلا لحظات بالغة القصر كي يقف من جديد ويريح أسماله من تعب قديم. ويسيل كتفيه المتآكلين لسكون ابدي عميق، بلا فوضى الليالي الدامية ورحلة النهارات الحارة التي لا تنتهي في قرى المعدان المترامية في الهور.... واللحظات، البالغة القصر، تدنو من أواخرها وتقف الآن. فيفيق مستسلما مادا حيزومه المنتصب بين القامات القصبية المشتبكة، قاطعاً ممر النجاة والعزلة بشكل افقي لينمحي ظله المعقوف في عتمة الدغل وتدور بطنه المخزومة الرطبة الى عرض الماء ويبدو كما لو انه جثم الى الابد. فيما تعالت مناغاة طيور لابدة في أمكنة سرية. وتضخم في الفراغ عراك ضوار مائية ورفيف خشن لأجنحة سميكة كالخشب. وتردد صدى طلقات بعيدة جداً: طلقات كثيرة جدا احرقت رؤوس البردي وطارت كعيون من الجمر ذات ليال لم يعد بالامكان اهمالها من الذاكرة الشائبة، وهي تصيب الخاصرة وتهدل الاكتاف وتثقل البطن الذي حمل رجالاً كثيرين كانوا جديرين ان يضمهم بطنه ورجالا آخرين كان حريا إهمالهم من لوح الذاكرة، فالشيخوخة تتوهج فجأة وتستدعي اسرارها في لحظة عزلة غريبة. ربما هي اللحظة التي تسبق الانطفاء او اللحظة العظيمة التي تولد مع اجمل عزلة أبدية، ثم جاءت الى السكون المبهم اصوات لرجال وكلاب ونساء، جاءت متداخلة مع بعضها مرة واحدة قاطعة مسافات مائية بعيدة وذابت في فراغه الاخير، مرقت عليه، ثم ابتلعها الصمت

الجاف فلم تحرك فيه غير يوميات كسولة ومشاوير مثيرة للإرهاق بين اسلاف المعدان الكثيرة.
بعدها عاد طنين الوحدة الجميلة يحيطه بشكل جدي ويقيم عليه خيمة صمت ربطت كل الجهات بجهته الأثيرة والفريدة، وكادت لبطة صغيرة ان تشرخ صمته المسالم لكنها لم تحرك سوى كتفيه المتآكلين ودفعت جزءا من حيزومه الى شق القصب ليستكين الى ألفة حميمة افتقدها سنوات طويلة ثم همد همودا حقيقيا في مساحة الانعتاق المرمية في آخر عراء مائي يمكن ان تصل اليه عاصفة محمومة او شيء تائه، تحت شمس مضاءة بقوة يكاد سطوعها يلج بين الاحراش المتعانقة وينفذ الى الاعماق الساكنة في ظهيرة اخيرة وشيخوخة آن لها ان تنهزم وتركن الى الصمت الكبير، جانبة في لحظة التوهج الاستثنائية، احداثا ومصائب، بذاكرة ينبغي ان تزيح عنها دخانا قديما تراكم برماد اسود.
تمسحه بيد مرتعشة فتعود ذاكرة صغيرة بحجمه، تغتسل بالمياه العذراء بين اشجار الغرب وهي تظلل الشاطىء دائما وتنزلق في الكواهين الضيقة او المسارب الفسيحة والانهار المتصلة ببعضها في دوران لا ينتهي إلا في مساء من العشب: ندي، حالم بليل بارد او فجر يقود الى مرعى دامع وبساتين خضلة تعوم في المياه او تصنع لها دكات من القش والطين وقناطر من جذوع ساقطة.
كانت ذاكرة طرية وصغيرة بحجم الكف لم تعد الآن إلا ماضيا طمسه اللهاث المزمن في الاهوار الطافية عبر عمر عجيب ببطره ومحنه واقداره. وقد كان لها ان تكبر بالاهوال على مدى الفصول المتوالدة وتعرش في صناياها الادغال

والاحراش وتبني بيتها بالقصب اليابس، بلا خصاص ملتحمة. إذ أن الايام عجيبة. تلد دائما اشياء لا حصر لها. اشياء كثيرة وكبيرة يكبر لهاث الحياة وراء عجلتها المسرعة. وتتعدد به الطرق المائية وتتقاطع من سلف الى سلف في قرى المعدان، بممرات متعددة. وشرائع بحافات طينية سوداء كما لو كانت حروقا موشومة يبست الى الابد على هذه الحدود الرطبة وغياب مستمر في خفايا الهور، تلك المجاهيل الغامضة الملقاة في بقع منسية متوحدة مع المياه وغابات البردي والقصب والمر ان ووحوش الماء وطيوره المتخاطفة بحواصلها المتدلية، اجل.... ما من شيء لا تستحضره الذاكرة بعد الممر الطويل.

يتعاقب عليها الرجال بوجوه صخرية جامدة. متعبين دائما. لاهثين وراء الحياة الخطرة الى ابشع نهاية ممكنة الحدوث. وهو ينقاد وراء مسالكهم الطويلة التي لاتنتهي إلا بمسالك اكثر وعورة وقسوة. ينزلق، كما قدر له، مندفعا الى ما شاء لهم ان يندفعوا به بوجوههم لصارمة وهي لا تعرف غير القسوة والصلابة والغدر... لا تنطق فيها اية شفة إلا في حالات يعرفها ويذوب خوفاً منها. فهي الإيذان بالبشر والخديعة. ما دام صدره المغفور محملا بالبنادق العتيقة ذات السبطانتين وجرابات الطلقات والفالات ذات الانياب الخماسية الرهيفة. لم يكونوا ينطقون إلا لبدء الفاجعة. يهمسون ويتريثون وتصطف مشاحيفهم خلف أجمة من القصب العالي، ويعرف ان ما سيحدث سيكون فجيعة لسلف غافل هاجع تحت شمس منسكبة على المياه الداكنة او في هدأة ليل غاطس في الظلام إلا من نجوم وفيرة تتراقص في الفراغ العاري.

وعندما يشيلون من صدره البنادق والفالات يترجلون خانضين المسلك الماني، يخبوّن متمهلين مثل كلاب الماء وعيونهم تبحث عن شيء ما. في مكان ما. عند صريفة او حقل او مشحوف او رجل غاطس في حقل الشلب، الى شيء يمكن ان يعيد الطمأنينة لروح ميت تفسخ من زمن بعيد.
وهكذا تدوي الطلقات هادرة تشق الصمت الغافل في نهار او ليل، يعقبها سقوط جسد في الماء او جسدين او ربما اكثر. فتزداد الطلقات من جهة الجسد الساقط تبحث عن مكامن الغدر وتنطلق بفجيعة من كل صريفة وحقل لتكون العودة اليه مضنية وخطيرة بين زحام الرصاص المتلاحق، فتطير من كتفه حرشفة بطول اليد وتتفتت فصوص منقاره المتفطر وتتقبه طلقات الصيد وهو ينوء بالعودة الهاربة مع ذوي الوجوه الحجرية التي لا تنطق إلا لتؤذن بغزوة للسلب او الثأر او البطر، وجروحه تنز فتدلق الى بطنه مياهاً شاخبو تثقل هروبه الصعب مع الفتلة ذوي الوجوه المحنطة التي لا تنطق إلا بالموت، كان يتذكر كل شيء بالتفاصيل.
اليوميات المتناقضة بالألفة والغضب. بالحلم والجنون، تنفلت اشياء كثيرة من ذاكرته وتتفكك كي يراها من جديد بوضوح وهي تتجه الى ماض غائر في الماضي. ما كان له ان يكون بهذا البعد لولا سنوات الجمر التي مرقت خلال الماء الفسيح وتركت ندوبها في كل ذكرى وحكاية وحادثة.
تنهمر كلها الأن مرة واحدة بعد ان ركد تحت سقيفة البردي مغسولا بالظلال السميكة. وبدا انه اطمأن الى ان الممر ينغلق تماما بعرانش القصب. في اجمل فوضى ملتحمة التحاما غريبا ونهائيا في هذا الخلاص البعيد، فأرخى ذاكرته وفتح

اسرارها الى آخر مدى، لعله يستريح من عناءات كثيرة ويرقد الى الأبد تحت صوباط القصب الملتم فوقه بعيدا عن سيرة متعبة رأى فيها ما رأى بعيدا عن السنوات الملحاء المصطفة خلفه، وما كان منه إلا ان يفعل ذلك، يجلو كل شيء بأصابع ماهرة وينصت لكل صدى قديم ولكل لحظة مرة، بزمنها الطويل الذي احرق الماء والهواء واغتال رجالاً كثيرين، أخوة واعماما واخوالا واقارب، من افخاذ اصيلة يحلف الغرباء برؤوس اخيارها.

ويدخل الضالون صوابيطهم ومضائفهم وهم في سلام وطمأنينة، يتنكر الآن الوجوه المعروفة التي تذب عن بعضها الموت وتقتحم عواصف الغزو المذنب من المواسير المزدوجة. الآن بإمكانه ألا ينسى شيئا، فما من شيء ينوب عن الذاكرة وهي تحصي مراراتها وتنثرها على راحة الماء في بقعة الخلاص المنسية، لكي تكون الذاكرة الطرية التي لم تهزمها الشيخوخة حتى هذه اللحظة المنفلتة من تاريخه الخاص، لشهادة اولى ثم الى شهادت قادمة كانت قاسية جدا في دوران الزمن العجيب. من مكان الى مكان، على الماء وحده، سر خلوده العفوي. ومن سلف الى سلف، بين لصوص وقتلة وطيبين وآخرين لا يسقطون إلا وعيونهم مفتوحة على الموت وناوجذهم تعض لحمة منه، والذاكرة مرآة ناصعة ازاح عنها الركام فرأى نفسه اخيراً. حيداً. دفعته عاصفة مفجئة الى بقعة ما كان يحلم ان يكون بها.

والظهيرة تنسحب. منذ وقت. تاركة مسوحا خافتة من ظلال رمادية، وهو يكتفي بهذه الفرادة المنقذة منسحبا الى داخله كذكرى، والشمس لم تعد طافية على الماء، كان يراها تتقشر

في الافق الساقط فاستطالت حوله وعليه ظلال البردي وغلظت والتحمت في غيمة فيء في لا نهاية لها فيما تلون الفضاء بألوان زرقاء خافتة ومع الصمت المطبق دس حيزومه جيدا في شق جدار القصب وانصت لدبيب الماء وهو يفتح جروحه القديمة ويبلل قاعه.

ثم يتسرب ببطء، من كل الجروح، فطفا القش اليابس اولا واخذ يعلو، بينما كانت اكتافه المتآكلة تهبط على مهل منجذبة الى قوى القاع العميق الأسرة، وعندما طفا القش فوق سطح الماء كانت اكتافه تترك آخر دفقة من هواء الغروب وتحولها الى فقاعات متزاحمة مبقبقة، فيما كان عنقه الملتوي ينزلق على مهل باتجاه مثلث الفقاعات كما لو ان شيئا ما يجره الى القاع المعشب في آخر لحظة من انفتاح الذاكرة قبل ان تغرق مع الظلام الذي اطبق على كل شيء....

الذهب

- 1 -

يوم أشاع إنه صار رجلاً من ذهب، لم تصدق القرية، إذ أن من مثله لن يكون إلاّ إصبعاً تالفاً أو مصراناً ينقره الدجاج، وما تسمع به قريتنا هو قبضة ريح فاسدة من جوفه الجائع. ويقيناً انه بات مُخبّلاً يريد ان يزيدنا ضجراً واسفاً ومحنة. كان ذلك عقب ليلة الريح السوداء والفيضان الذي قتل الحقول والبساتين واغرق صرائفنا وبضعة رجال واطفال وابقار وجواميس لكل ما من احد يريد ان يسمعه ويصدقه، حتّى زوجته الحلوة»بطة»كذبته وأشاعت ان مطشر زوجها مَسّهُ الخبل بسبب الجوع والحاجة وغرق القرية....

لكن هذا الاصبع التالف... المصران الخائس اثبت فعلاً انه رجل من ذهب! وتمكن من ان يُدير رقابنا الى ليراته الذهبية المدورة وان يسمعنا صوت الذهب المتساقط في جيوبه، كان ذلك حقيقة، واجَهنا بالاكوام المدورة التي برقت في العيون كالشموس الصغيرة، واخذ بريقها يتخاطف كاللهب.

كنتا لا نريد ان نصدق هذا المصران، لكننا صدقناه مندهشين وحائرين ومتشككين وهو يصيح باضطراب، وهو يرتعش، ونرى اشياء ميتة فيه اخذت تتحرك. أنه آن الأوان ان ارتدي عباءة مرعز وأبني مضيفاً كبيراً بثلاث عشرة شبّة واصير شخصاً من شيوخ القرية مثل الشيخ راهي المكصوص.

وفريضة بين المعدان...لكن بطه الحلوة لا تريد لاحد ان يصدق. وتحلف برؤوس الاطفال، ان مطشر ممسوس وغير عاقل.

وكنا نرى بعينيها المكحولتين شكا وغموضاً وخوفاً وزوجها الذهبي، هذا المصران الذي ينقره الدجاج، يقول ان الحظ قاده الى الكنز وهو في هور (الستّاف) يصطاد الطيور. وان الله سبحانه وتعالى منّ عليه برزق وفير سيعيش به خمسة آلاف سنة بالتمام والكمال!

كان ذلك عقب ليلة العاصفة والفيضان الكبير الذي سحق قريتنا الصغيرة واحالها الى صوابيط مكسّرة وقش منثور ورزق غريق ودواب ميتة وذكرى من الذكريات المؤرقة:

إذ أن ما حصل كان مهولاً وفاجعاً وقاسيا. ولم ننجُ إلا ونحن، نحن من تبقى وبيننا مطشر واطفاله الوسخون وبطته التي لم تغرق ولم يجرفها الموج العالي. فضاع كل شيء في ليلة سوداء وتلاشى تعب العمر. إلا هذا الرجل، الاصبه التالف والمصران الملقى على حافة ساقية، مطشر رجل الذهب الذي ملأ جيوبه وزيقه بالليرات في هذا الوقت بالذات.

وقت القرية الغريقة التي كانت حتى قبل اغماضه عين لا تعرف هذا المسخ، لولا بطته ذات العينين المكحولتين التي تأسف على شبابها رجال كثيرون سراً وعلناً، يوم رضيت به زوجاً على سنة الله ورسوله، وها هي الآن تمرق في كل مكان وتُشيع ان زوجها ممسوس، لا تصدقوه! أصابه الخبل. لا شيء في جيوبه، انه مجرد مخبل... ولو كنا نصغي الى ما تقوله بطة الحلوة فقط لصدقنا على الفور لانه يكفي ان تقول بطه هذا الكلام ويكفي ان نرى عينيها المكحولتين تتفتحان

على سواد عميق وهي تمر في كل مكان خرب، لكن مطشر مارس جنونه بشكل فاجر وهو يعرض امامنا ليراته المشعة، بل زادها، بعد ان غاب في الهور اياماً متتالية، حفنة اخرى من الليرات تزيد عن حفنات جيوبه.

وكان هذا كافياً ان يبعث فينا الغيرة والحسد، فهذا الكنز يكفي مطشر وبطنه الحلوه ألف سنة! وستظل ذريته تعيش الغنى الى ما لا نهاية مهما كثرت العواصف والفيضانات. وسيكون ذا شأن مهم بيننا هذا الذي كان يتحسّر على نصف قوصرة من التمر واقراص من الخبز!

لكن الدنيا هكذا، امرأة عوراء تلد ولداً اعور! وإلا ما بالها تغدق على هذا المطشر كل هذا الرزق الكبير! أما تكفيه بطه؟ هذه التي ارادها شيوخ واجاويد وابناء حمولة.

تركنا بعض محنتنا وما عاد إدعاء بطة ان زوجها ممسوس يعني لنا شيئاً. نسينا سواد عينيها وتسلل البعض الى بيت مطشر طالباً، بتوسل وبرجاء، ان يدلهم على الكنز وان يساعدهم، فهم اخوة له والانسان يحتاج اخاه.. أما ترى يا مطشر... ان المرء لا يضمن ان يعيش ليلة واحدة.. مجرد عاصفة اخرى ونموت.

وما ينفعنا الذهب! إننا نعيش اياماً معدودات. ومن قُدر له ان يعيش اياما أخر فهو محظوظ أما ترى يا رجل حياتنا الصعبة... لا نريد ان نملأ جيوبنا بالليرات... حفنة صغيرة تكفي... أنت شهم يا رجل.. وكان بعض رجالنا يتربص بالمصران، يراقبه اينما ذهب، لعله يستدل على هذا الكنز الذي يملأ الجيوب بالذهب ويحوّل الانسان من مصران الى شيخ، حتى يعيش خمسة آلاف سنة ويرتدي الحرير ويلف

جسده بعباءة مقصبة بالذهب لها رائحة المسك او الزعفران. وما كان احد قادراً على فهمه، كان يكتفي ان يقول ان الحظ قاده الى هناك، في هور السّناف، ولعلّ الله يلتفت الى الجميع ويمنحهم من فضله كنوزاً كثيرة لكي يعيش الجميع في غنى ويسر.

وما كان الجميع مقتنعين بما يقوله مطشر، لكنهم ظلوا يتسللون الى بيته كل ليلة يسمعون نفس الحكاية ورؤوسهم مثقلة بالاحلام والآمال. وبطة تهمس ان زوجها سيجن بعد ايام. وهي ترى تزايد الناس لزيارة مطشر ورجاءهم ان يكون عوناً لهم، أن يصف لهم المكان بشكل صحيح، ويسألونه ان كان قادراً على ان يجلب الكنز بأكمله ما دام تحت يديه وبمقدوره ان يصله دونما عناء!

حتى نساء القرية اخذن يتوددون الى بطة، فربما تكشف سر الكنز، لكنها كانت عنيدة وخبيثة وتدّعي ان رجلها ليس على ما يرام وبعد ايام سيفقد عقله، والجميع، كل القرية، باتت على يقين ان بطة مدعية وانها تكذب لسبب غامض وبشكل لا يليق بجمالها وعينيها المكحولتين، فزوجها، المصران الذهبي عاقل ونظيف وعلى رأسه عقال مائل، مثل الشيوخ، ويجيب على كل سؤال ويساعد المحتاجين بحدود هو يقدرها لانه يعرف رجال قريته.

كان يتربع على مخدتين، وصريفته اضحت مضيفاً لكل هذه الايام التي هجرنا فيها محنتنا وتركنا القرية في غرفتها ريثما نجد حلولاً مع هذا المصران الذي تربع على قلوبنا وصار وسيماً ذا رائحة تشبه رائحة الطلع وجذب اليه كل الرجال الذين انشغلوا مندهشين بهذا الكسب المفاجيء الذي كسبه،

وما كان لنا ان نستمر هكذا بطبيعة الحال، سفحنا الكثير من قطرات الحياء فلم تبقى لنا إلا قطرة واحدة على جباهنا. وما كانت كل حكاية تبدأ إلا وتنتهي.

- 2 -

كانت ليلة كبيرة بحق ان تجتمع قريتنا في المضيف الاحداب لاول مرة رهذا الحشد البشري. وكان المضيف ذا موقد يتوسط الجميع وهي يضيء الوجوه، فتتراقص العيون الصامتة قلقة وتتقاطع الظلال على الخصائص القصبية، فيما ظلت تتردد، والى وقت غير قصير طقطقة الفناجين وهي تبدد الصمت المضطرب والرؤوس، ذات الاحلام المتسارعة، تنتظر امراً مجهولاً التصق بها عنوة عقب العاصفة السوداء والفيضان الكاسح، فتحول الى حلم كبير اخذ ينمو مع نمو المحنة مُشعاً في الرؤوس كشموس صغيرة لها ألق خاص ووهج يبهر العيون ويخطف القلوب.
حلم اوسع من الحقول واكبر من الشمس الكبيرة انه حلم بسعة مطشر ذاته، هذا المصران، والاصبع التالف الذي صار لساناً في حلوق الجميع ينطقهم بالذهب والحظ والمصادفات والاحلام والاماني. وما كادت طقطقة الفناجين تنتهي حتى ران صمت مخيف قطعه شيخنا راهي آل عبادي آل سقيلم

المكصوص بصوته الغليظ:
«أي مطشر... هل صار كنزك سميناً!»
ارتبكنا قبل مطشر. كانت في صوت الشيخ سخرية خفية. وما اردانه ان يبدأ ساخراً. فالمصران الذي أمامه لم يَعُد سهلاً. انه يجلس امامه كشيخ يتربع على مخدة ممن الصوف مقلمة وعلى رأسه عقال مائل وغترة مرقطة وعلى كتفيه عباءة مقصبة بالحرير والذهب يلفها على جسده باعتداد:
«نحن لا نحسدك يا مطشر على كل حال..»
كان مطشر يحوص في مكانه، وينسدل على عينيه ظل سميك... تنحنح قبل ان ينطق. ثم قال، كما لو لم يسمع ما قاله الشيخ المكصوص ثانية:
«بَرَكَة... يا شيخ..»
قال الشيخ. وهو يتربع على ثلاث مخدات من الصوف:
«البركة لا تأتي من الشيطان!!»
مسك مطشر طرف شاربه وهو يشزر الشيخ المكصوص:
«البركة من الله سبحانه وتعالى..»
كان رأسه مائلاً. اعتد وهو يكمل:
«... ولكن الانسان حقود!»
شدّ الشيخ عباءته، وقال بحزم:
«الانسان لازم يعرف اخاه في المحنة»
قال مطشر بثقة مطلقة:
«الجميع في محنة يا شيخ راهي... ولا تكفيهم عشرة كنوز من الذهب!».
خِفنا جميعاً فالذهب يُقوي من لسان مطشر وكنا نراه، هكذا، أعلى من الشيخ المتربع على ثلاث مخدات من الصوف وظلّ

قامته يتراقص على خصائص القصب.
إستأذن الحاج منعثر صلبوخ آل صافي من شيخنا. في محاولة لان يخفف من حدّة الشيخ وانفعاله.... وقال:
«اسمع يا مطشر.. هنيئاً لك ما كسبت إن كان حلالاً... وعليك بالعافية..».
قاطعه مطشر محتداً:
«وماذا تظن يا حاج منعثر! سرقته!؟»
اعتذر الحاج:
«استغفر الله..... ما كان قصدي هذا... عليك ألف عافية.... ولكنك يجب ان لا تنسى إنك حبل من مضيفنا. وأنت لست مقطوعاً من شجرة ولم تخرج من فطر الارض... والشيخ راهي يريد ان يشير عليك بإخوتك هؤلاء... وعندما يموت الانسان لا يأخذ معه غير كفن رخيص..»
قال مطشر وهو يزيح طرفاً من غترته خفق امام عينه:
«ماذا اقول يا حاج منعثر المصادفة وحدها قادتني الى هذه النعمة. وانا ما تركت القرية وما تخليت عن احد.... وما من احد مدّ لي يده وارجعتها فارغة..»
سكت.... أحسسناه يتقصد ان يسكت وهو يقول مثل هذا الكلام. كان ينظر الى حشود وجوهنا. ونحن نرى وجهه كتلة غامضة:
«أما المحنة.... فكلنا في محنة بعد الفيضان... وانا مثلكم خسرتُ زرعي. ومات (حلالي)... وانا مثلكم جائع وحائر ويدي قصيرة ابحث عن الخبز والتمر والحنطة... وهذه الليرات القليلة لا تكفي لحل المشكلة يا حاج.. انا واضح... ورجال القرية حاضرون ويسمعون كلامي هذا...»

تعاظم الصمت الخائف ولم نمسك بعد بمفتاح يقودنا الى مسالك الذهب، فتشبثت عيوننا بالشيخ المكصوص الذي كان يتململ وهو يفترس بعيني مطشر ويقول:
«اسمع يا رجل... اقول لك كلاماً واضحاً ولا تغضب... فأنت ابن القرية. وقد وهبك الله رزقاً لا تملكه السلاطين وما يزال الرزق كما تقول وإنك ذهبت الى هور السناف مرتين وعدت وجيوبك متخمة بالذهب، وقد تذهب مرة ثالثة ورابعة وخامسة وتجلب المزيد، ونحن نريد ان تحل لنا هذه الحزورة وتدلنا على الكنز.
او تقول اشياء واضحة فالقرية في ضنك ومحنة وتحتاج همة الرجال.. ومنذ الفيضان وهم يلاحقونك ويحلمون بالذهب... فزاد الجوع وسيحل الخراب بنا وتعطلت اشياء كثيرة.... انت تعرفها يا مطشر»
إصطفت وجوهنا وهي ساكتة:
كان كلام المكصوص معقولاً، بعث فينا الامل وكانت على وجه مطشر ابتسامة ساخرة، هذا الجربع الذي صار من ذهب.... ولكننا كنا نرى ايضا انه مضطرب ومتورط.... ومع هذا فقد قال بثبات:
«صاحب السر لا يعطي سره يا شيخ راهي!»
تدخل الشيخ منعثر. وقال بتسليم:
«اذن ساعد اخوتك»
انبثق صوت مرتعش لرجل:
«ساعدنا فقط يا مطشر... قل لنا أية حرثة توصلنا الى....»
لكنه سكت. كما لو بكى. فقال مطشر لفوره وهو يعدّل وضع عقاله:

«أريد أن أقول شيئاً أمامكم..».
عاين في الوجوه المتخشبة فأفزعته فصوص العيون الوامضة وتصورها للحظات كما لو انها عيون ذئبية تنتظر لحظة حاسمة...
«الصدفة قادتني الى الذهب.... واريدكم ان تصدقوا»
اهتزت الرؤوس:
«لا بد ان تصدقوا. فالقضية مثل الخيال. وأنا نفسي لم استطع تصديقها اول الامر.... لكن... لكن الليرات التي ملأت جيوبي اجبرتني على التصديق..»
تداخلت فصوص الذئاب وضوء الموقد يتوزع فيها... فبدت مثل نقاط نارية سريعة التنقل.
«سأقول لكم كل شيء كي اريحكم وأريح الشيخ راهي..... المحظوظ من يتعب ويصل ويملأ زيقه بالذهب».
تحركت الجموع المحشورة في المضيف وازداد تماس الاكتاف. واقتربت الوجوه من انفاسها كأنها تريد ان تخرج من الرقاب:
حتى ان الشيخ راهي المتربع فوق ثلاث مخدات من الصوف.... حرّك جسده متطلعاً الى زحام الوجوه المستنفرة ومثله فعل الحاج منعثر الذي عطس رغماً عنه.
قال مطشر:
«الحكاية ابتدأت من الفيضان والعاصفة المسعورة. لقد خسرتُ كل شيء مثلكم. غرق حقلي الصغير وماتت اغنامي القليلة وكدنا نموت انا وزوجتي واطفالي. ومثلكم التجأتُ الى الهور، مرات كثيرة ذهبتُ معكم الى الصيد وعدتُ بما مقسوم لي من الطيور وانتم تعرفون ان مثل هذا الرزق لا

يسد الرمق ولا يكفي إلا يومين او ثلاثة»
تنحنح في الصمت المطبق. أربكه شعور طارىء. بأن الجميع قد ماتوا فاستطرد»الايام صعبة والاطفال يريدون خبزاً والارض مغمورة بالماء. كنتُ ازداد حزناً، تمنيت يوماً لو كنتُ قد مُتُ في تلك الليلة العاصفة واسترحتُ من هذا العناء... وذات ليلة كنتُ متكدراً ومهموماً فنمتُ على قلق ورأيتُ، فيما يرى النائم، أنني ذاهب الى هور (السنّاف) بمفردي ووصلته دون تعب. وانتم تعرفون ان هور السناف بعيد. ويحتاج الوصول اليه يومين كاملين، لكنني وصلته في ربع نهار مرتاحاً وسعيداً. واكتشفتُ إن الانسان حينما يكون وحده يستطيع ان يفكر بشكل حسن وان يجد الحلول المناسبة لمشاكله. ويشعر بطمأنينة كبيرة.... تخيلوا هذا.... وصدقوا...»
قال مطشر:
«كانت رحلة الحلم ممتعة. وعندما طلع الصباح اخبرت زوجتي بسعادة الفجر القصيرة. وقالت: حلم خير ان شاء الله خير، لا يبعد هو عن السناف على من يريد ان يروح اليه. صدقت الحلم وما قالته زوجتي فأدرت مشحوفي وعزمت ان اروح وحدي بعدّة الصيد. الكسرية والفالة والقوانات، وكانت رحلة سريعة ولذيذة، فذاك الهور قلما نصله.
لكنني وصلتهُ بنهار كامل وانا اتزود بالصبر والامل، واصطاد الحذّاف بوفرة حتى امتلأ مشحوفي بالطيور السمينة وكان المساء يتقدم مسرعاً وفي داخلي إحساس غريب يدعوني للمكوث بين المياه الخضراء. وغمرني شوق مفاجيء الى زوجتي والاطفال كما لو غادرتهم من زمن وانا ارى اكوام

الحذاف السمينة تملأ مشحوفي لكن الليل حمللي استرخاء وراحة بال افتقدها منذ ليلة العاصفة السوداء. فقلت لنفسي:
ما عليك يا مطشر إقض ليلتك بين القصب. الطريق طويل. والصباح رباح..»التقت عينا الشيخ راهي المكصوص بعينيه، كان وهج الموقد ينوس في العيون المبحلقة. وفي داخله يتنامى احساس، بأنه يعذب الآخرين بهذه التفاصيل. تصور نفسه يضحك، فيتردد صداه بكاءً متحشرجاً. تصور نفسه للحظات يبكي، وان الآخرين الذين يشكلون سوراً بشرياً صارماً يضحكون كالمخابيل. ثم يعاودون البكاء والصراخ والضحك ويقولون اشياء لا تسره كان يضطرب وهو يلم جسده ويشدُه بطرفي عباءته المقصبة. وعيناه تلتقيان بجمرتي المكصوص، فيزداد تشبثاً بما سيقوله، وبما تبقى من الحكاية. ويزداد فخامة وهو يرى حشود العيون تتكالب عليه وتزرع في وجهه ثقوباً من نار الموقد التي يزيد تأججها رجل قصير كلما اوشكت على الخفوت.
تململ وهو يجزم انه سكت طويلاً:
«دحست المشحوف في البردي، وسويت صوباطاً من القصب واذكر ان القمر كان بدراً»
اضاف مطشر:
«شويتُ حذافة سمينة وأكلتها كلها...»
همهم رجل بضيث. وانفلتت بضع كلمات من فم رجل آخر. لكنه حبسها. فيما واصل مطشر حديثه الممض:
«لا بد ان اقول كل شيء. فحتى الحظ لا يأتي إلا عبر سلسلة مصادفات او احتمالات. وإذا لم تكن هذه التفاصيل تعنيكم، فانها تعنيني على الاقل. ما دام قد قُدر عليّ ان اكون رجلاً

بلا اسرار. وما دمتم مصرين على مشاركتي....»
تفرس بالوجوه. واختلطت عليه الملامح التي كان يعرفها:
رآها قاسية وبليدة، تنضح بالحقارة والشراسة. فلم يترك في داخله مكاناً للحساب، هو الاصبع التالف والمصران الذي ينقره الدجاج والذي صار رجلاً من ذهب، يمتلىء بالليرات المدورّة.
قال. كما لو يريد ان يُقرر حقيقة:
«تعرفون ان اهوارنا متروسة عرابيد وخنازير وكلاب ماي وطيور الليل.... وما كان هذا يعنيني بقدر احساسي ان بي حاجة لمزيد من الراحة فتمددت على الصوباط وكسريتي الى جانبي وكنت مقرراً سلفاً ان ارجع الى القرية في اول الفجر مع أكوام الحذاف...»
زعق رجل بصوت مبحوح فحرك السكون المتحفز واشاع فوضى قصيرة لكن سرعان ما أسكته الايدي المرتعشة وتم سحبه الى ظلام المضيف وإلقاؤه في زاوية رطبة، وبانتظار تفاصيل لا اهمية لها. كان الجميع يمدون رؤوسهم موتورين يُنصتون:
«لا ادري كم مضى من الوقت، كان الليل منقطا بملايين النجوم. والعزلة تمنح البني آدم افكاراً صافية وتعطيه راحة بال. وكنتُ غافياً. أو بين ان أكون نائماً أو يقظاً، كانني في حلم جميل، حين فتح عيني صوت ليس بعيداً.... يعني سمعتُ شيئاً يتحرك بين القصب، كان يخبط في الماء ويقترب.
ولم اخطأ في تشخيص ذلك الشيء المتحرك في الماء والظلام من انه جاموسة. وتعرفون ان كثيراً من الجواميس تتيه في الهور معظم الاحيان.... وبقيت اصغي للخبط وهو يقترب،

فنهضت ومسكت الكسرية منتظراً اي طارىء. لكن كل شيء سكت، ومع هذا انتظرت بعض الوقت، فربما يكون خنزيراً جائعاً، وكنتُ اقول إنه من المؤسف ان يموت الانسان بين انياب خنزير نجس.....»

كان من الواضح له ان يسمع الانفاس الشاهرة. ويرى جمر الموقد متناثراً بين العيون. وكان يهجس في دواخلهم نهاية الصبر، ويتلمس، بخبث، انفجارات غضب مكبوتة. وصرخات مسحوقة، لكنه في كل الوقت كان يعتقد انه يمارس حقه لاول مرة وبهذا الشكل غير المتوقع:

بعباءة مقصبة وعقال مائل، وسط المضيف: أمام الشيخ راهي المكصوص. فالحياة لا تمنح المرء فرصاً كثيرة.

استطرد رجل الذهب. الذي كان مصراناً ينقره الدجاج:

«لا ادري ما الذي دعاني ان ابقى يقظا وقتاً طويلاً، ربما هي العزلة في ذلك الهور البعيد. وربما هي هواجس مفاجئة تجعل المرء يتمسك بحياته الى آخر لحظة. ولم اكتفِ باليقظة، إنما قررتُ ان اقف بطولي، فما دام القمر بدراً فقد اقدر ان ارى شيئاً.... سيما ان ذاك الشيء الذي كان يخبط في الماء لم يكن بعيداً عني..... والحقيقة لم ار شيئاً واضحاً برغم ضوء القمر سوى القصب والبردي إلا ان الصوت عاد وانبثق ثانية. ازددت انتباها... لقد كان صوتها قريباً وواضحاً. وانا لم اخطأ منذ البداية انه صوت جاموسة. اجل جاموسة حقيقية بينما تاهت عن القطيع تبحث عن مسلك يقودها الى قريتها..»

سكت..... تطلع الى الوجوه الجامدة وقال:

«لا بد من ذكر كل ذلك...»

صاح صوت. فيه اثر البكاء:

«الذهب..... أين وجدت الذهب يا رجل!»
صاح صوت آخر وكان مبحوحاً:
ثم نطق فمُ في وجه محتقن:
«إش... إش... دعوه يحكي..»
عاد الصمت الموتور يخيّم على ارجاء المضيف. وعادت الوجوه الى تحجرها. فخاطبها المصران:
«عليكم ان تصدقوا فقط..»
وكان من السهل عليه ان يسمع:
«نصدقك يا اخي. سولف..»
وسولفَ:
«سكت الصوت وقتاً طويلاً. وبقيتُ يقظاً الى الفجر أتأمل شيئاً يأتي لا اعرفه بالضبط. حتى غابت النجوم وطلع الفجر الابيض. كان الهور مثل (مرايه). والواحد يرى نفسه في الماء. وكنت قد اعددت نفسي للرجوع الى القرية، إذ لا فائدة من البقاء. خاصة والمشحوف مليء بالطيور وقد تتعفن بعد وقت، فلا جدوى من الصيد..»
تسارع رجل وتساءل برعب:
«وهل رجعت!»
لكن مطشر واصل قائلاً:
«فجأة... سمعتُ صوت الجاموسة. سمعتها بوضوح. والحقيقة لا ادري وقتها لماذا كان صوتها يشدُني. كنت شبه حزين. وكان صوتها يخاطب الجوع في داخلي. نزلتُ من الصوباط وانا احددّ الجهة التي ينطلق منها الصوت. ونزلت في الماء وانا اشق طريقي بين البردي وما هي إلا مسافة قصيرة حتى رأيت الجاموسة....»

كان المضيف محنطاً بكامله. وخُيل له ان الوقت الفائت يتعلق بهذه اللحظة دون غيرها حتى شاعت في جسده للحظة مرتعشة طوقها بعباءته وهو يقول:

«كانت جاموسة ضخمة تبرك في الماء وحولها قصب متشابك... لكن دهشتي كانت كبيرة لما رأيت الجاموسة، إذ انها كانت بيضاء مثل القطن... هل رأيتم جاموسة بيضاء من قبل!!؟.

صاحت اصوات مرتعشة:

«لا.... سبحان الله..»

قال مطشر:

«جاموسة ضخمة مثل جواميسنا ولكنها بيضاء. ثبتُّ في مكاني انظر اليها خائفاً إذ إنني لم اشاهد جاموسة بيضاء. بل لم اسمع طيلة حياتي أن احداً رأى جاموسة بيضاء مثل القطن. وانتم اعرفون ان جواميسنا سوداء او رمادية»

اهتزت الرؤوس موافقة وشخرت بعض الانفاس.

«دنوت منها بقلق خائضاً في الماء وخائفاً بصراحة. إذ ربما تكون حيواناً مفترساً بهيأة جاموسة فيكون من المؤسف ان يموت الانسان بحيوان لم يرهُ سابقا!»

ضحك المصران. لكن احداً لم يضحك. أما الشيخ راهي المكصوص فقد زرع عينيه بعيني مطشر الذي كان يتجاهله، وهو يحكي لنا هذه الحكاية الطويلة.

«لا... إنها جاموسة ولكن بيضاء مثل القطن. تلوك بخمول وتنظر اليّ بعينيها الكبيرتين. اقتربت اكثر وانا اقول هذه غنيمتي وهذا رزقي. أبقيت بيني وبينها مسافة خطوة ومددتُ يدي أمسد ناصيتها العريضة وأدغدغها بيد مرتعشة، فبقيتْ

على هدونها. ثم ألغيتُ الخطوة الوحيدة وأحطت رأسها بذراعي وانا امسح على رأسها. ظلت هادئة هدوءاً عظيماً وهي تغمض عينيها بتلذذ...»

لم ينطق احد بشيء. لكن الاسبع التالف سمع اصواتاً تتقاطع ورأى أيدي مشعرة تلوح له باشياء غير مفهومة. وكانت العيون تلتقط جمر الموقد وتحيله، في محاجرها، الى نار دائمة الاشتعال. فجزم، في سره، إنَّ اللحظة القادمة قادرة على حسم هذه الليلة الصعبة، حين تنطفىء آخر جمرة في الموقد ويخفت تلمظ العيون ويحل فيها رماد اسود متحجر. قال محاولاً ان يفجر لحظته الذهبية بشكل لا يتوقعه اي وجه بليد:

«وفجأة تحشرج شيء ما بين فكيها القويين. فخلتُ ذلك بسبب المضغ المتواصل: إلا أنني سمعتُ خرخشة معدنية بين اسنانها الغليظة كما لو كانت تريد ان تسقط. فمددت يديَّ دون وعي لالتقط اول ثلاث ليرات من الذهب!!

وقبل ان أجر يدي وانا متعجب وغير مصدق تساقط عدد أخر من الليرات وانا في حيرة من امري، إذ أن ما يحصل لا يحدث حتى في الاحلام، ثم اخذت تتقيأ المزيد من الذهب. وانا املأ جيوبي وزيقي. وهي لما تزل تبرك في الماء وتهبني هذا الرزق الفريد بالتتابع حتى كفت. مسدتُ غرتها برفق. لكنها كانت تنظر لي فقط. وعندما كنتُ أخبُ في الماء كان صوت الليرات المترجرج في جيوبي يكاد يميتني من الفرح..»

سرت همهمات غريبة في المضيف. تحولت الى صخب، وكان اكثر من حلق يعترض ويتساءل ويتشكك، حتى تعالت الاصوات وتقاطعت مستغربة، لا تريد ان تصدق. أحسسنا

ان شيئاً غير معقول يحدث في حكاية مطشر الذي بدا مرتبكا يخوّص عينيه كأنه يتقي صفعات، لكنه قالها هكذا، كأنما يقول لنا هذه هي غرائب الاقدار. وهذه هي الحظوظ تحولتُ من رجل منسي جائع ومصران ينقره الدجاج الى رجل تجتمع من اجله كل القرية بشيخها المكصوص ورجالاتها الاجاويد وترغم علبان تنتصت له في ليل طويل غامض وحافل بالاثارة واللامعقول..... لكن الحكي الكثير الذي قيل لا ينفع. فالرجل يقول ما عنده وجيوبه منتفخة بالليرات:

تساءل الحاج منعثر بصوت يرتجف:

«اوضح لنا يا رجل.. ما الذي حصل بعد ذلك»

تململ وهو يمسح الوجوه بنظرة شاملة وقال:

«لا ادري كيف رجعتُ الى القرية. لقد كنتُ سعيداً سعادة لا توصف. طرتُ بالمشحوف أسابق الريح. وفي البيت فرشتُ قطع الذهب ولم اكن قد صدقتُ بعد! ولكم الحق ان لاتصدقوا الآن! كانت الليرات من الذهب الخالص. سقطت من فم جاموسة وصارت بجيبك يا مطشر. طلبت زجتي، زوجتي بطة تعرفونها!! أن تكتّم الخبر، فقد يسرقنا اللصوص. لكنني قلت لها: لا.... يجب ان اقول ذلك للقرية... وانتم تدرون إنها كانت تشيع أنني سأصير مخبلاً!»

قال رجل بمرارة:

«بطة كانت على حق..... ولكنك...»

اضاق مطشر كأنه لو يسمع ما قاله الرجل:

«لم انم ثلاث ليالٍ متواصلة، فالفرح كان يملأ روحي وبطة تحثني على الكتمان. وانا ما في قلبي على لساني، وهور السناف صار حلمي. قلت لبطة:

سأعود ثانية ولا تخبري احدا.... سأعود الى جاموستي فهذه فرصتي العظيمة في الحياة. سأتحول من مصران الى ذهب. قلت لبطة سأعود بحفنة اخرى املأ بها صريفتنا ونعيش خمسة آلاف سنة بالتمام والكمال!

وهكذا عدت الى هور السناف في صباح مبكر أسابق الريح. ولم يخطر على بالي انني قد لا اجد الجاموسة إلا عندما وصلت بعد ساعات طويلة. حيث انتبهت الى أنني لا اعرف المسلك الذي سلكته في المرة الاولى، فانا لفرط دهشتي وسعادتي لم اترك نيشاناً ولم أعين الاتجاه الذي دخلت منه وخرجت. وكاد اليأس يصيبني في دروب الهور الكثيرة، لكن هناك شيء في داخلي يحثني على الصبر وقضيت ليلتين كاملتين ابحث عن جاموستي في كل المسالك.

وأصغي فلعل صوتها يدعوني الى الذهب. وجاءني صوتها في الليلة الثالثة، اجل، كدتُ استسلم لليأس. لكن الله بعثها لي في لحظة خالدة وكان يسيرا العثور عليها بين دغل متشابك. خضتُ المياه مسافة طويلة متشبثاً بالبردي والعنكر فوجدتها، جاموستي، تبرك بضخامتها وبياضها اللاصف تلوك باعتداد وتنظر اليّ بألفة.

دنوت بخفة أمسد غرتها الصلبة وأداعب أذنيها واحيطها بذراعي حتى خرخش الذهب بين فكيها فتساقطت الليرات بين يدي لماعة. تقيأت الجاموسة ثلاثة حفنات ثم اكتفيت وبقيت تنظر لي وهي تلوك باعتداد. قبلتها من غرتها وانسحبت على مهل. لكنني، هذه المرة، تركت نيشاناً وتأكدت من مسلك الخبود والغنى، لانها هبة الله الى مصران فقير جائع....!»

لم يترك مطشر للهمهمات ان تتعالى وللافواه ان تشك إذ

اكمل مسرعاً، كما لو يريد ان يقول آخر ما عنده:
«في البيت فرشت القطع الذهبية على حصيرتين، وبكيتُ. وبطة تقول، لا تكن مغفلاً وتخبر الآخرين، وكانت تقول لكم أنني أصبحت مخبلاً، ولم أنم ليلتين. كنت في اقصى درجات السعادة. وفي الليلة الثالثة قررتُ العودة الى هور السناف. الرزق من الله وواجب العبد ان يشكره سبحانه وتعالى. ومتى ما زال الرزق وجب علينا الشكر الكثير. وكان الهور هذه المرة، كبيراً جداً، لا ادري وجدتها هكذا. بحثت عن النيشان فلم اجده في اليوم الاول.وعندما وجدته في اليوم الثاني. لم اجد الجاموسة. أنصت الى الاصوات ولكل الخفقات الضالة. إلا أنني لم اعثر على جاموستي. اخذتُ أدور في الهور ستة ايام بلياليها. لم انم ولا لحظة واحدة. ملح وذاب. الهور كبير. والرزق جاء مرتين. ولم يأت مرة ثالثة. تعبتُ.... وبكيتُ.... شكرتُ الله وعدتُ خائباً.... وللامانة اقول انني رجعت مرتين آخريين ودخلت هور السناف من مداخل اخرى ولكنني لم أجدها... اقتنعتُ إن الحظ سلّم عليّ مرتين وراح..»
هذا ما رواه المصران ولم يزد عليه. كانت الاحلام تراود الرؤوس المصغية على مضض، ولكنه قطعها الى الابد بضياع الجاموسة البيضاء فاضاف الى سر الذهب سراً آخر. ولو صدقنا حكايته. لن نصدق اختفاء جاموسته بالشكل الذي حكاه. ونحن لا نريد ان تنتهي الحكاية بالظفر الكبير لمطشر وبطته الحلوة. واحوال القرية تزداد سوءاً. يجتاحها الجوع والعوز. ولهذا تحول شكنا السري الى شك مُعلن وامام المصران بالذات الذي بدا انه متورط وغير سعيد لمثل هذا التجمع الكبير الذي لمّ شمل القرية لاول مرة على هذا النحو.

وبدا انه مُحاصر امام لغط اللاغطين. ورأى عيون الآخرين مجتمعة في عيني المكصوص الذي لم يقل شيئاً حتى الآن.
وظل الحاج منعثر الذي تساءل بشك:
«ضاعت... أم ضيعتها يا مطشر!!»
تجاهل شكه الحاقد وهو يقول:
«الهور كبير يا.... منعثر»
«ولكنك وجدتها مرتين!»
«ولم أجدها في المرة الثالثة»
واضاف بخبث:
«هي حيوان أولاً وقبل كل شيء»
عاد الصمت يزيد من حيرة الجميع. قطعته غمغمات يائسة لرجال كانوا قبل قليل يحلمون بالذهب والحياة الرافلة بالعز والمجد والغنى والجاه. لكنهم بدوا الآن واجمين في ليل ثقيل يطأ صدورهم ويجثم على آخر بوارق تبرق في رؤوسهم.
ورجل الحكاية لهذه الليلة الخالدة يعاين الوجوه ويقرأ في تلافيفها حيرتها واضطرابها، فيتفاقم في داخله شعور بأنه في ورطة حقيقية، إذ ان الجاموسة اختفت في الهور الشاسع، هي حيوان أولاً وقبل اي شيء لتنطفىء آخر الاحلام المعلنة أمامه منذ غناه وجنونه الذي اشاعته بطنه الحلوة.
وفي خضم هذه الفوضى من المشاعر. والليل يعبر منتصفه بساعتين، ينست العيون من التحديق بالاصبع التالف وتناوبت النظر اليه بينه وبين الشيخ راهي الذي وجد نفسه في فخ قاتل، إذ عليه ان يقول شيئاً ويحسم اشياء لتعود العافية الى القرية وينبت الزرع على اكتاف التراب.
ويعود الآخرون الى ترابهم وطينتهم، لهذا تزحزح من مكانه

وتنحنح وازاح مخدة واحدة من مخدات الصوف من تحته وقال وهو يشزر مطشر:
«لكن رجال القرية قد يجدونها... أم تعتقد إن الهور قد ابتلعها!»
ركز عينيه بعيني الشيخ وقال:
«لا ادري يا شيخ... الهور كبير... ربما ابتلعها!!»
ضيّق الشيخ عينيه وهومت يداه في الهواء وقال كلاماً حاسماً:
«ستكون عوناً لرجال القرية وتكون الدليل!»
حزر ما يصده الشيخ المكصوص فقال ليوصل القضية الى ذروتها:
«صعبة والله يا شيخ!!»
أزاح الشيخ مخدة ثانية من تحته فبدأ أقلّ طولاً وزعق:
«لا تكن أنانياً... ولا تسعَ لنفسك»
ارتعبنا. وتزاحمت اكتافنا تُعبر عن قلقنا جميعاً. وامتدّت رقابنا تستطلع ما يدور بخشية.
قال مطشر بهدوء:
«بودي الخير للجميع...»
صاح رجل في طرف من اطراف المضيف وعيناه محتقنتان»
«ما بودك الخير لنا..»
وصاح صوت مختلج آخر:
«الخبزة الحلال اهنأ من ليراتك يا مطشر»
وتقاطعت عدة اصوات:
«اسكتوا».
«صبركم يا رجال»
«مطشر ابن القرية..»

«مطشر كذاب وحرامي»
«مطشر يباوع لنفسه بس»
«لا... هو شهم»
«سيوصلنا الى الجاموسة.»
«هو كلب ابن كلب..»
«إصبع خايس»
«لا... شهم...»
«ومصران.»
«لا ندري كيف قبلت به بطة وهو مصران»
«إش... إش... عيب... مطشر إبن القرية»
أشار المكصوص بواحدة من يديه وهو يهمهم وأزاح من تحته آخر مخدة فبدا بمستوى الجميع، إلا مطشر الذي احتفظ بمخدتيه تحته...
قال المكصوص:
«اسمع يا مطشر... بدل ان تكون فتنة... دل الرجال على الطريق»
رد مطشر ببرود:
«في هور السّناف»
صاح الشيخ آمراً:
«روح وياهم»
تساءل مطشر:
«وشنو فائدتي!؟»
زمجر المكصوص:
«دلبهم على الجاموسة»
«ما وجدتها في المرة الثالة»

«ابحثوا عنها..»
«الهور كبير يا شيخ... يا مكصوص»
«الرجال كثرة..»
«أنت تعرف سعة الهور... وآلاف مثلنا لا يملأون دربا من دروبه...»
«انت تسدها بوجوههم..»
«انا اقول الصحيح»
«حاولوا... والتساهيل من الله يا مطشر»
«نتعب... دون فائدة»
«لعلكم تجدونها..»
قال مطشر بثقة. كما لو يريد أن ينهي الحديث:
«الرزق يأتي مرة واحدة....»
رد المكصوص:
«رزق الله في كل مكان..»
قال مطشر:
«ليبحثوا عن رزق الله. فأنا لستُ عالماً بالغيب..»
«لا... توصلهم إلى النيشان..»
«ضاعت الجاموسة كما يضيع الحلم... يا شيخ..»
«ضيعتها يا رجل بطة..»
انتفض وهو يفترس بحصار العيون، قرأ في تحديقها المخيف إصراراً حاسماً وكان الليل يجثم على صدره بكل ثقله. وشهر ان القرية كلها تبرك عليه وتطحن اضلاعه وتنهش لحمهُ»شيعتها يا زوج بطة!»بدا مضطرباً. وايقن ان الحصار قاس ومتوحش. رأى الجوع يلمع في جمر العيون. ورأى الآمال المعلنة تتبدد. وهو يدري أنها ستتبدد. ألم يكن هو

المصران؟!
لكن بطة كانت على حق. كان عليه ان يكون مخبولاً، ويبقى مصراناً واصبعا تالفاً كي يعيش على هواه، خارج المضايف. يشم هواء الحقول، لان المخابيل وحدهم يعيشون سعداء.
صار الوقت متوتراً واحس ان اشياء كثيرة اخذت تنهار في داخله. لكنه كابر امام زحف الوجوه المحنطة وشرار العيون... الرزق يأتي مرة واحدة.. وانا لستُ نبياً... وكان عليه ان يقول اشياء كبيرة، لكنه كان خائفاً امام الإصرار الذي شلّ جسده، فغمره تعب قديم، تناسل فيه وطفح في هذه اللحظات الشرسرة، وعندما حاول ان يحرك جسده وجد انه هرم جداً وأحس ان رجليه مقصوصتان وانه على خواء عفن، كان ثقيلاً وحزينا، وحشود العيون المجمرة تحثه على شيء وتقترب منه وهي تجاهد أن تحتفظ بآخر نثار ضوء الموقد الذي اخذ يخفت، وعندما حاول ان ينهض وجد نفسه طافياً على ريح فاسدة، فأغمض عينيه باستسلام وأراح رأسه على قصب المضيف.

نشرت في مجلة الاقلام ـ العدد الخامس ـ
ايار 1990

أجنحة الكلاب

بعد إن تفادت «الكابرس» حفرة صغيرة اعترضت الشارع الغارق بالسراب رأى الحاج مشكور ان يلفت انظار الرجال الثلاثة المعتمرين اليشاميغَ الى ما يحدث خلفهم؛ غير انه تريث وهو يسوّي من غترته المرقطة مختلساً نظرة عاجلة الى المرآة الجانبية ليرى اشباح الكلاب المتراكضة، فلم يرَ إلا السراب المتفتت المنسحب خلف العجلات وغباراً يلتف على صمت الشارع الطويل ويذوب في الآفاق المترامية في سكونها المضني الأثير وهو الامر المعتاد بالنسبة لسائق قديم مثله؛ خبر الطرقات الطويلة الممتدة في الصحارى والشوارع الموغلة في القيظ الساخن، وتطبّع على امواج السراب المتقادمة في صيف كهذا الصيف الحار، والصور الكاذبة المتولدة امام الانظار التي ترهقها المسافات التي لا تنتهي، واعتاد على المسافات الملغومة بالنحيب الصامت لرجال فقدوا اعزاءهم، والصراخ المشروخ الذي لاينتهي لنساء يبالغن في محبتهن لمن قتلوا في غزوات عشائرية.

ولم يعكر صفو الحاج مشكور دائماً ما ألِفَهُ وهو يحمل توابيت الموتى الى مقبرة النجف الكبيرة من قريته الواقعة في

فم الهور، إلاّ هذا النهار الفاقع بالشمس، القائظ الصحراوي، النهار العطشان المتوحد مع السراب، الامر الذي يجعله متشككاً ومتريثاً حتماً امام هجمة الكلاب السلوقية الشرسة التي لم يرَ كلاباً بحجمها من قبل؛ وهي تعدو لاهثة، طاوية المسافات البعيدة، فتدنو بإلحاح منقادة خلف شعاع غريب تنفثه من حفرات عيونها وتقترب بسرعة كابوسية، كأنما يراها بوضوحها المنحصر في المرآة وهي تتسلق مؤخرة الكابرس لنهش التابوت الملفوف بعباءة امرأة لها حظوة في قريتها وقرى المعدان المتاخمة، إلا ان السراب يعشو عينيه في كل مرة؛ فيستعيذ بالله، ويخفف من اندفاع السيارة، ويتوقف الى جانب الطريق؛ عندها يستفيق الرجال الثلاثة من شرودهم عندما يتلاشى هدير المحرك، ليجدوها فرصة للتبول ومط ظهورهم امام قرية متروكة في العراء المتوحد ببيوتها الطينية الملحاء، فيتدحرجون بيشاميغهم الزرق كالبطاريق الى اسفل الشارع؛ ويختفون بين العليق والاشواك، فيهبط الحاج مشطور متفقداً سيارته من الجوانب لها؛ يتفحص حبال التابوت ويجد ان بعضها كما لو تأكل بفعل الريح العكسية العالية!

اقتنع بان الشمس الساخنة قد جعلت من السلة الحديدية قضباناً من نار وإن اهتزاز العجلة في الطريق الطويل ترك حزوزاً على الحبال الغليظة، فيزيد من شدها كأنما ليطمئن على سلامة التابوت!

لكنه سرعان ما يجفل؛ فمن اتجاهات التابوت ثمة آثار لمخالب كلاب؛ الكلاب التي كانت تنهب الشارع وراءه وتنشر اجنحتها وتطير قافزة على تابوت المرأة المبجلة؛

فتختلط في عينيه امواج السراب وسورات الشمس العمودية؛ وعلى سطح سيارته بصمات وخراميش لا يريد ان يصدقها، وهذه الظهيرة القائظة تخلط الرؤى عليه ويتيه البصر في الاعماق القادمة مع المسافات المطوية، المتثاقلة، المريبة، وعندما يريد الحاج تصفية بصيرته قبل بصره تهاجمه رائحة نتنة، لا تحتمل، تتفاقم في انفه كلما دنا من التابوت؛ رائحة ميت عفن لا تطاق؛ تخللت انفه في وقفتين متتاليتين، فكانت تزداد نتانة؛ فيمتثل لخوف غريزي وتستشري في جسدهِ رعدة لا يعرف سرها ولم يشأ ان يفكر باكثر مما يعرفه من ان الموتى ينتنون ويجيفون، لكن هذا لا يصُحُ على امرأة القرى القاصية والدانية، المرأة المبجلة، أم الرجال الثلاثة الذين يرافقونها الى مثواها الاخير، صاحبة المزار العامر، ذات الوجه النوراني المبارك، خبيرة النساء والرجال والعلل، محجة المعدان الذين يقصدونها من اعماق الاهوار؛ قاطعين النهارات والليالي للتبرك برؤياها ومشورتها.....

أهذي هي؟!! جيفة لا تطاق!! استغفر الله العلي العظيم... ربّ اغفر لي خطاياي وذنوبي وكفّر عني سيناتي...

يا حاج مشكور هذه ولية صالحة وها قد صارت جيفة خانسة.. فما بالكَ انت الفقير لله!

وقبل ان يمسح الحاج مشكور دمعةُ المتطافر عاد البطاريق الثلاثة متناوبين بالطلوع من الاحراش والعليق يسوون بيشاميغهم الزرق واجتمعوا امام السيارة وهم ينهامسون بشيء، متطلعين الى التابوت والحاج الذي تحاشى النظر اليهم لسبب لم يقتنع به هو، لكنه عاد وتملى بالوجوه الثلاثة، فوجدها تُحدّق به وهي مستغرقة بحزن يقدرُهُ ويُجلُهُ،

فالراحلة، بعمرها الطويل، لم تكن أمّاً عابرة في حياة هؤلاء الابناء الكبار، إنما كانت أم القرية منذ ثمانية اجيال، أغرقت الغريب والقريب بالعرفان والجميل والافضال المشهودة للجميع حتى دانوا لها ولابنائها بالطاعة والولاء والاحترام والتقديس والتبجيل الاعمى.العلوية، الأم الكبيرة، العارفة، الشافية، المباركة، الكافية.

قال الاخ الاكبر- ذو الوجه المتجهم أو الغامض، وهو يمسح عرق وجهه بكفيه الخشنين (لنتوكل على الله يا حاج).

قال الحاج مشكور كأنما يشكو من شيء وهو يلتفت الى الخلف

(لنتوكل.... الجو حار... سأمشي على كيفي.... الحرارة تزداد يا سيّد...)

ثم أكمل: (باوعوا الطريق معي يا سيد... أقصد... قد يتبعنا شيء ما..)

لكنه وجد ان صوته تحشرج في صدرهِ، وقبل ان يصعد حرص ان يمسح المرآة الجانبية بعناية وهو يُمعن النظر جيداً.

ثم جلس امام المِقود ورائحة الجيفة تملأ خياشيمه؛ وفي المرآة الجانبية ظل الشارع الساخن ينسحب خلفه والسراب يتماوج كماء ملوث، واشباح متقافزة تتراءى له في العمق البعيد كأنما تريد ان تقترب لكن ثمة ما يمنعها الآن. وفي استقامة السيارة على الشارع الطويل لاح للحاج مشكور رأسا الرجلين اللذان يجلسان خلفه وقد اقتربا فيما ظل الرأس الثالث الى جانبهِ ينظر الى الشارع المائي دون ان يتفوه باي شيء؛ الاخ الاكبر سليل العِرق النبيل؛ المتجهم الغامض،

وجه البيت الازرق؛ قبلة الغرباء والضالين؛ صاحب المضيف الذي لا ينقطع رنين الهاون فيه الى اخرة الليل.
هذا الرأس الساهم بأمور لايدركها مشكور، لم يقل شيئاً سوى تمتمات استغفار تفلت من فمه بين حين وآخر، ودمع سرعان ما يجف بفعل الهواء الساخن المنقذف الى جوف السيارة؛ فيما ظل الشارع مسكوناً بالصمت المريب والسراب الفائض والسيارة الدارجة بحذر وسط هذه العزلة المطوقة بالصيف القاحل والقرى الازلية التي لاتنبىء عن حياة ذات جذور واضحة.
ومع ان الوقت استتبَّ الى الحد الذي بدا فيه الحاج مشكور وقد اخذ يغذ فيه السير متطامناً الى رؤاه التي سببتها موجات السراب المتلاطمة، إلا ان مرآته الجانبية ظلت تكشف له جزءاً من عباءات التابوت؛ تتطاير بسبب الهواء المندفع فتحجب مساحة من المرآة.
وخيلّ اليه ان جسدها يتعرى في الفضاء وتحت قسوة الشمس الحارقة، لكنه آثر ان يستمر بسرعة اكبر لكسب الوقت، بعيداً عن رؤاه السالبة وحاستّه المتفسخة، وهو يقرأ (الوسواس الخنّاس) بهمس مسموع وعيناه تتخاطفان بين الشارع الممتلىء بزئبق السراب والمرآة الجانبية التي تتطاير في جزء منها عباءة التابوت، وتكشف في جزء آخر موج السراب المار، مترقرقاً، شفيفاً، وثمة اشباح متراقصة في البعد، تعود متسابقة في الظهيرة الحارة، تتجسّم وتتلاشى، تقترب وتبتعد، ثم تدنو لاهثة وهي تطير باجنحة من سراب او نار، كلاب مسعورة كشفها جزء المرآة، وفضحها في عدوها المتلاحق وهي تشرع انيابها الطويلة قادمة بعدوانية

مميتة، كما يراها في الجزء المكشوف، مجتازة كتل السراب ومندفعة الى التابوت بقوة وصلافة؛ ولم يكن منه سوى ان ينتبه لاوهامه المتلاطمة هذه المرة ويخففّ من انسيابية سيرهِ المتسارع؛ الامر الذي ايقظ سرحان الاخ الاكبر ومن ثم الاخوين الآخرين اللذين انفصل رأساهما وتطلّعت عيونهما الى الحاج الذي لاذ مرتبكاً بالمقوَد وعيناه لا تفارقان مرآته؛ حيث احتشدت فيها الكلاب المسعورة منفلتة من شفافية السراب الهائجة على نحو مفزع، تتسابق معتلية ظهر السيارة وهي تهاجم التابوت وتمزق العباءة بشراسة محمومة وتدس ابوازها فيه وتنهش في الجثة، كما يرى الحاج بعينين مفتوحتين على سعتهما وجسد يختض معروقاً ويدين ترتعش فيهما المقود، فيما ظل الرجال واجمين وحائرين والعجلة تتباطأ متمايلة في الشارع الفارغ؛ حتى استقرّت على فسحة ترابية وخفتَ شخيرها مخلفة وراءها زوبعة من صمت مشكوك؛ مضطرب؛ فسارع الحاج للنزول محموماً يتقصى رؤيته التي لايشك بها لحظة واحدة، متفحصاً التابوت، باحثاً عن حشد الكلاب السلوقية التي تبعته من القرية (كلاب القرية يعرفها) فلم يجد إلا التابوت وقد مال جزء من العباءة عنه، وعندما هبط الرجال الثلاثة وراءه، كان الحاج قد تسلق ظهر سيارته واخذ يسوي العباءة باضطراب ملحوظ ويشدها باحكام، مبلول الجسد، لاهث الانفاس، يقاوم الرائحة الكريهة المتصاعدة من الجثة، ولاحت له بشكل سريع آثار مخالب على العباءة الممزقة، وحرص وهو في ارتباكه ان يرتب التابوت على الا يثير التساؤل.

وقبل ان يقول السيد الكبير شيئاً صاح بصوت متهدج:

(لا شيء... أسوّي العباءة..)
ثم اردف: (الريح عالية..)
وعندما تفرق الرجال الثلاثة في مسرب جاف مغطى بالعاقول ليتبولوا، القى الحاج بنظرة الخائف الى الافق الذي وراءه، كان ثمة سراب منقرض وبيوتات مانعة متوارية واشكال هجينة لقطعان نخيل وغربَ وقرى منسحبة في الهجير القائظ وسراب يتراقص يعرفه الحاج في ارتحالاته المتتالية وهو يشيل موتى القرية دائماً، ولم يكن هناك ما يوحي ان كلاباً كانت تطير وراء التابوت لتنهش الجسد المقدس!
ولو لم تفزعه الجيفة النتنة لظل محدقاً الى الآفاق المترامية وراءه والقادمة اليه في الوقت المتبقي، فهو على يقين مما يراه... ولكن... استغفرُ الله ربي واتوب اليه.... اللهم اغفر لها ذنوبها!!
وحينا عاد الرجال وهم يزررون بجاماتهم الداخلية كان الحاج يزيد من اسغفاره وهو يترجل بتثاقل ويجلس امام المقود بعد ان طشّ على وجهه الماء وبلل شفتيه منشغلاً بما يحدث له في هذه الرحلة الجنائزية لسيدة القرى المعروفة، ذائعة الصيت كامرأة تقترب افعالها من الكرامات، وفي الوقت الذي أزَّ فيه محرك السيارة وهي تتسلق الشارع من جديد قال الاخ الاكبر بعدم ارتياح- كما خُيل للحاج:-
(أنت مهموم يا مشكور!!)
(أنا!!) ردّ بعصبية كما لو إنه قصد شيئاً بعينه.
- (لا.. الجو حار كما ترى..) اضاف وسكت، ثم قال:
(الدنيا حارة... والانسان يشوف كل شيء...!) وتملّى المرآة الجانبية بحرص ظاهر؛ كان السراب المنسحب يتماوج

وثمة اشباح بعيدة تظهر وتختفي، ثم حرص ان يرى الفراغ المنسحب خلفه من المرآة الامامية.
(وما الذي تشوفه يا حاج.!..)
(لاشيء... لا شيء... سراب!..)
طقّت اصابع الرجل طقّات متتابعة وقال بصوت خفيض:
(أتدري! ما الذي تريد ان تراه يا مشكور!)
بوغت الحاج بما قاله الاخ، فنظر اليه بارتياب وخشية، ثم عاد يتفرس بالمرآة على عجل، ليعاود النظر بعدها الى الشارع ونصفه يميل اليه كأنما ليسمع بوضوح.
(ارى ما تراه في الخلف... يا مشكور!!)
بهت الحاج وهو يستدير كلياً الى الاخ، واختضّت سيارته بين يديه، ثم استدار لفوره متمعناً في المرآة الجانبية، حيث السراب المنسحب كعاصفة مفتتة، ثم عاود النظر اليه بشك وهو يتعوذ خائفاً. ولما اراد ان يقول شيء وجد لسانه منعقداً، ووجد ان السيارة باتت ثقيلة، كما لو ان كلاب الرؤيا تمسكت بعجلاتها... وربما ادرك الرجل ان الحاج تشابكت عليه الرؤى في هذه الظهيرة فقال:
(بصيرتك هي التي ترى يا مشكور.... أما بصرُك...)
ولكي يظل منتبهاً فإنّه عدّل من وضع جسده واخذ يتفرّس في المرآة المستطيلة أمامه وسافاه لا تثبتان على دواسة البنزين.
(أما بصرك يا... حاج... يا... مشكور... فإنه يرى ما في بصيرتك!)
لم ينطق الحاج بشيء وكان الطريق يمتد جالباً الكثير من السراب مع اشتداد الظهيرة التي ضخت كتلاً جديدة من الحرارة الساخنة، وظل الحاج يُعيد في سره متلعثماً بما قاله،

إلا انه لم يفقه اسرار الكلام الملغز.. ابناء الصالحات يقولون اشياء مثل الانبياء لا نفهمها نحن.... إلا إن الرجل عاد وقال بجفاف:

(لا تتعب نفسك يا مشكور بما لا تستطيع ان تحتمله... فقد يدركك ما يضاعف عليك الحمل الثقيل!!)

إهتز شارب الحاج، وتشاغل بصورة المرأة المتلاطمة؛ كانت الاشباح تعلو اسفلت الشارع وتطير باجنحة السراب فتدنو الكلاب ذاتها بهيئات اكثر افتراساً ووحشية وقسوة؛ كانت عيونها الملتهبة تقدحُ بالشرار، وانيابها الطويلة المبروة تمزق العباءة وغطاء التابوت وتمعن في نهش الجثة... ارتبكت السيارة بين يديه، وخطف بعين واحدة وجه اللائذ بالصمت ثم تواطأ على سرعة العجلة فجهلها تتهادى على الشارع الممدود وعيناه لا تصدقان مشهد الموت الجديد، إذ تحولت المرأة الى اشلاء بين الفكوك التي غارت عميقاً في الجثة، وتطافر الدم المتفسخ مع مزق اللحم المتهرىء في تزاحم الكلاب التي كانت تحملها اجنحة غامقة من المكانات كلها باجنحة بارزة تغطي سقف السيارة وتحط على التابوت كأنها طيور جائعة قدمت من صحارى بربرية؛ من كهوف ومغارات وقد قادتها رائحة الفطيسة، فانفجر المشهد امامه قاسياً، مروعاً، ولم يعُد بمقدوره احتمال كل هذا الالم، فصاح صوت عنيف في داخله لكنه لم يستطع اطلاقه؛ غير ان الكابرس تمايلت وبدا له ان التابوت سيسقط وما زالت الكلاب تتعارك فوق الجثة وتلطع الدماء التي ملأت عينيه عبر المرآة، وضج الصوت في داخله من جديد وما زال خفق الاجنحة العريضة المتصارعة يحجب عنه الرؤية المثيرة،

رؤية الصراع المستكلب الذي حوّل المرأة الى ذكرى مضاعفة في سرائره، وقبل ان يخفت شخير السيارة وهي تنحو الى الفضلة الترابية، قال الاخ الاكبر بضيق:
(الجو حار يا مشكور وما زلنا في نصف المسافة..)
ادار له الحاج وجهاً اصفرَ بملامح مرتبكة متمتماً:
(الكلاب... والله العظيم رأيتها.... كانت... كانت... تطير...)
توقف لاهثاً.. توقفت السيارة، نطّ الرجلان الآخران مستفهمين من خلفه، فقال الاخ الاكبر بتبرم:
(خلّ رؤياك إليك... أنت تحلم يا مشكور... تحلم كثيراً!)
التفت مشكور الى الرجلين بوجه صحراوي، ثم عاود الالتفات الى الاخ الذي قال بحزم:
(أرى ما تراه يا حاج.. رؤياك قد تجلب عليك ما لا تقدر على حمله.. إنك تؤذيني يا رجل... انزل وشد حبال التابوت!!)
وحين همّ بالنزول أكمل الاخ يهمس وهو يُدني رأسه اليه كأنما يشاورهُ:
(.. لا تنسَ يا حاج أن تَخلتي يشماغك على أنفك...!!).
وعندما تحررّ من جوف السيارة والتقفه سكون الشارع، فاجأه الصمت الذي يُرين على المكان المهجور فلسعتهُ حرارة منتصف النهار، وعرف إنه مبلل بالعرق الغزير، وكادت عيناه تقفزان من محجريهما وهو ينط بهما الى الاعلى؛ لكنه وجد التابوت يستقر في موضعه بين اضلاع الحديد الساخن، ودار حول السيارة دورتين متفحصاً كل موضع فيها ويكاد وجيب قلبه يشلعُ اضلاعهُ، ثم صعد متعالياً فوق السقف الحار، فألفى التابوت على سكونه تحت الشمس اللاسعة، ولكن العباءة ازدادت تمزقاً وكادت قطع منها اتفلت

لو استمر بعض الوقت في سيره المحموم، المرتجف، كما ازدادت الرائحة عفونة وكأنها رائحة ميت عفا الدهر عليه في مرحاض متروك!
وما شك لحظة واحدة في الآثار التي تركتها الكلاب على العباءة وسقف السيارة، فقام بشد الحبال ويداه ترتعشان بعد ان شد انفع باليشماغ متفادياً ما أمكنه استنشاق الرائحة الخانسة التي لا تشي إنها رائحة المرأة المبجلة؛ صفوة النساء؛ المرأة الخيرة التي يحلف برأسها القاصي والداني، ولكن لكل ميت سببه يا مشكور، وهذا الحر الشديد يفطس الاحياء قبل الاموات، وربما هو كابوس يا رجل، فالرجل المتجهم يرى ما اراه ولا يتعب نفسه، من يدري لعله يرى ما يغطي تابوت أمه وانا ارى كلاباً مسعورة تتراكض وتطير بأجنحة كبيرة!!
الرحمة عليك يا امرأة وغفر الله لك ولنا الذنوب جميعها ايتها الولية... الصالحة.
وقبل ان يهبط ألقى نظرة قلقة على الآفاق المنسحبة، فلم يكن هناك سوى السراب المتراقص ومفاخر الطابوق التي تنفث اعمدة الدخان الغليظ، تشكل لطخات سوداً في صفاء السماء، واصوات صافرة في الهجير الحار، وقبل انغماسه في الصمت المضطرب، وحثه صوت كدر من داخل السيارة فقفز مغمغماً، غير قادر على اخفاء الخوف المتضاعف فيه، وحتى عندما قعد خلف مقوده كان يتحاشى النظر الى الاخ الذي وجده غامضاً وكأنه يطمس في برميل من الماء الخابط.
قال الحاج مشكور بحلق جاف:
(أل... الكلاب..و... و... الجثـ..)
احتبس الكلام في حلقه وهو يضع عينيه في عيني الاخ المتبرم،

قال شيئاً ما اختلط بهدير السيارة التي انطلقت في الفضلة الترابية مثيرة وراءها زوبعة من غبار ايقظت الشخصين الآخرين اللذين همهما طاردين من عينيهما النعاس الخاثر، او الالم المستعصي في دواخلهما، حتى استقامت على الشارع المبلط هادرة بسرعة اكبر، وعينا مشكور تبحلقان في الفضاء القادم وهو يتنامى بسوائل شفافة من السراب المبتعد، ثم ترتدان الى الخلف، عبر المرآة الجانبية، ليجد ذات السراب المارق مع الوقت البطيء، يتكاثف كألسنة بيضاء، ويتحول الى اشكال غريبة تغذ خطاها أو اجنحتها للحاقِه؛ تحالطه سحابات سود متفرقة لمعامل الطابوق المتوارية، تنفرش كأجنحة مقصوصة تشوه المسافات بسرعة خارقة.

وقبل ان يشيل عينيه من المرآة تنحنح الاخ، ثم التفت الى الخلف وقال للرجلين:

(الموت حق، والانسان لا يأخذ من الدنيا غير اعماله الصالحة).

انتبه الرجلان الصغيران بجدية وهزا رأسيهما بخضوع، فيما ادار الاخ الاكبر جذعه الغليظ الى الحاج قائلاً:

(والدنيا مكسورة الخاطر، والبخيت الذي ينال شفاعة الواحد الاحد).

اهتز رأس الحاج هزات متتالية وتمتم بصوت مسموع:

-(أمنتُ بالله العي العظيم..)

اردف الآخر:

(الدنيا تابوت كبير يضم الزين والشين).

ثم التفت الى الاخوين الاصغرين:

(والأسود والأبيض.. لكن..)

لاحظ الاخوان الصغيران ان وجه الاخ الاكبر مفرط بالعرق الغزير، مكتسيا بسمرة مشرّبة بسواد داكن، كما لاحظا في جبهته ندبة سوداء كبذرة قديمة غطتها تجاعيد قديمة، لكنها تنعتق الآن بصعوبة بين طيات اللحم الصغير المتكدس، وعندما كانت شفتاه تتمتمان تراءى لهما الوجه المتعب المتعرق كما لو انه يبكي بصمت منذ زمن طويل، وبانت عيناه تترقرقان بسراب معتم او سحاب غامق، وربما كانت اللحظات الحميمة التي تمر تترك اثراً محزناً في جو المأتم المنحسر في جوف السيارة.

وقد تألف الحاج مشكور مع الصمت الملغوم واعصابه تتوتر وما تبرح عيناه تجوسان في فسحة المرآة التي تسحب الشارع الى الوراء ليصير عبئاً عليه، ومع ان الشمس حادت عن سِمْتها قليلاً إلا ان الظهيرة ظلت مشتعلة في الخارج، وتزداد اشتعالاً.

خرج الاخ من صمته القصير وقال صوته الميحوح:

(كلنا نموت إلاّ هو الحي الباقي... وما كانت الوالدة يرحمها الله إلاّ بشراً... وفي البشر؛ في كل واحد منا؛ شيطان رجيم..)

مال وجهه الى الحاج، وكان الحاج متلص الوجه، عيناه تترجرجان بترجرج السيارة المندفعة، متناوبتين باتجاه الشارع الطويل والمرآة التي تكاثفت فيها ابخرة السراب؛ جالبة في مساحتها الصغيرة اشباحاً مختلطة تحفها غيمة من نار ودخان؛ لكنها لما تزل بعيدة في موقع الافق المتراجع؛ فوجد الحاج نفسه في بقايا وقت حرج، وقد خامره شعور طاغ من ان الاخ يرى؛ بأي شكل من الاشكال؛ غيمة الاشباح المحفوفة بالنار وهي تقترب طاوية البُعد المتواري؛ تحملها

اجنحة عملاقة تغلق الفضاء برفيف مصطفق يبث الهلع، وهو؛ كما في كل مرة؛ أمر يتجسد حقيقة مرعبة امام عينيه، فنقل بصرهُ بين الاثنين؛ الاخ المتجهم الصموت الذي لا ينطق إلا كلاماً مبهماً؛ والكلاب السلوقية المحمومة القادمة، وفي اللحظة التي اضطربت فيها السيارة كما لو انزلقت، انقضت الكلاب المسعورة وهي تقذف باجسادها الضخمة على التابوت ممزقة العباءة ومحطمة غطاء التابوت، تتعارك وهي تنهش الجسد المكفن الذي توزع بين انيابها المبرومة وفكوكها الطاحنة، وفي اللحظة ذاتها صاح الاخ الاكبر كما لو استفاق من كابوس مريع:

(الله اكبر) وفزّ هو قبل غيره مشدوهاً، فاغر الفم، كأنما ليقبض على صيحته المنفلتة، وتمايل الرأسان خلفه بعيون مبحلقة وهمهمات مختنقة، فيما تلعثم الكلام في حلق الحاج وعيناه تترصدان المأتم الدموي على سقف سيارته التي اضطربت بين يديه؛ لكنه تمسك بمقودها الثقيل؛ فوجده اثقل مما هو كائن ومحمّل على متنها، واختلطت اصوات الجالسين بهمهمات غريبة متسارعة حتى استقرت السيارة على الشارع الترابي وهي تشخر وتهمد كجثة؛ تطوقها الاتربة المرتدة اليها، فيما هرع الحاج مشكور، وهيئته مشعثة؛ منزوع اليشماغ؛ متهدل الدشداشة؛ زائغ النظرات وقد دارت رقبته دورة كاملة، فهرع مخبولاً، صاعداً السيارة بفتحة ساق واحدة وعيناه مشنوقتان باتجاه التابوت...

لم تكن هناك؛ كما في كل مرة؛ جوقة كلاب هاجمت القافلة المتوحدة؛ ولم يكن ثمة إلاّ سراب خاثر منقذف تعشق فيه دخان مصهور معتم؛ ولم تكن إلاّ آثار متكاثرة لمخالب

ورغوة انياب ومِزَق كفن وعباءة وما يُشبه نثار الدم؛ وقد يكون هذا بعض ما رآه الحاج، أو لم يَرهُ؛ وربما هو ماثل على سقف السيارة ام ان السراب عصف بعينيه المجهدتين، ولكنه لم يستطع التماسك حين هاجمته رائحة كريهة أحالت السيارة الى جثة متعفنة لا تطاق؛ فارتد متفادياً موجهاً المتلاطم، كأنما يدرأ شراً مرابطاً له، وأجال بصرهُ الجاحظ الى الاتجاهات كلها، كانت الظهيرة قاسية ومتربة ومعزولة، وفي دوران عينيه غير المستقر كانت عاصفة غبار اصفر قادمة تأتي وتلتم في سرعة متناهية؛ تتقادم محمولة على موج الشمس بسرعة متناهية، فتتشكل في سحب دوارة تكتسح الفضاء برمته وتنزل على القرية الميتة متمادية في اتساعها السريع، وتبتلع الشارع الممدود لتلتقم السيارة الرابضة في سورّة ترابية مباغتة؛ فدارت عليه الرائحة الخانسة واحاطته من كل مكان، فأحسَّ إنه تلبّس بها عنوة، وفي فوضى الجو الغائم الاصفر صاح به اكثر من صوت مترب، مختنق، متذمر، نافذ الصبر، فكان يرد بلا صوت ويتماسك على السقف منفتح الدشداشة، كأنها ستطير وتعرّيه، محاولاً شدّ قطعَ العباءة المنفلتة، غير ان صوت الاخ الاكبر هدر في سمعه غليظاً وصاخباً وآمراً، فقفز تاركاً كل شيء، لاعناً يومه الغريب، واندس في الحوض الامامي مغبّر الوجه، لاهثاً، برماً، متوتراً؛ وعندما ادار المحرك قفزت السيارة بعنف، تخترق امواج الغبار والجو الاصفر المنعقد، فاصطدم الرجلان الاصغران ببعضهما، واختض الاخ وهو يتشبث بنفسه، ثم استقامت السيارة على الشارع المتخفي بالتراب دون ان يكون امامها ما هو واضح، وغام سطوع المرأة

الجانبية في حفنة غبار بلون القهوة، وبدا للجالسين ان الوقت المتبقي سيكون عصيباً بهذا الطقس المنقلب، لا سيما الحاج الذي اشتعل فيه جمر الخوف والارتباك والحنق وطول المسافة ولغز الكلاب المسعورة التي يراها ولا يراها وصمت الرجل الذي لا ينطق إلا بما لا يعرفه هو.

وسكوت الاحوين الاصغرين لا يُفصح وجودهما عن اي شيء قابل لان يجعلهما مهمين كالاخ الاكبر، او يجعلهما في موضع الرثاء وجنازة امهما التي تناهبتها الكلاب المتوحشة على مدار الوقت الطويل الذي لا يريد ان ينقضي مثل اي وقت كان يحمل فيه توابيت الموتى من القرى والقصبات الى مقبرة النجف المتسعة دائماً.

سعل الاخ وهو يغلق نصف وجهه الاسفل، وبان فضاء الرجال المغلق حاراً، دبقاً وخانقاً، بينما كان الغبار الهائج يصطدم بالمرآة الأمامية وقمرة السيارة ليحدث صوتاً متفتتاً وأنيناً لا يسمعه إلاّ مشكور الهائج في داخله، الناقم لهذا اليوم العنيد، وقد بات لا يستطيع التخلص من من رائحة الجيفة والعفونة الملازمة لمناخيره ودواخله المهيأة للقيء والبراز.

كف عن سعاله بصعوبة ثم ادار وجهاً مشعثاً الى الحاج وقال بخفوت:

(ما من شيطان يسكن النبي آدم إلاّ ويفضحه الله جلتْ قدرته...)

وأكمل بين أنفاس الغبار:

(الانسان كذاب يا مشكور، وعلينا ان نكون شجعاناً لنقول ذلك...)

وضع يده يشد من اليشماغ المتهدل على نصف وجهه الاسفل،

حابساً أنفه قدر ما يستطيع:
(لماذا يا مشكور تريد ان تتحمل ما لا تحتمله؟؟!)
انتبه الحاج وهو مشحون بالألم والغيظ:
(ما الأمر... أنا لا أفهم!!)
رد الرجل وعيناه تضيقان بالغبار المتكاثر في جوف السيارة:
(ما تريد تشوف الذي شفته يا مشكور... لكن الذي شفته... هو من الله عزوجل).
قال مشكور بانكسار:
(انا شفت الذي شفته.... ويمكن يكون سراب أو وهم!)
قرّب الاخ رأسه فبدا للحاج انه متعب وكأنه سينهار في اية لحظة:
(اللي شفته ما ينحكي يا حاج، لا سراب ولا وهم، والانسان عندما يلزم لسانه يلزم الله عنه قيضة من نار، واللي صار... صار، وبني آدم ما معصوم، لكن ما من راد لما يريده الله سبحانه وتعالى...)
خفتت سرعة السيارة بمواجهة غبار ماراكم تكاثر وغطى الفضاء، حاجباً نور الشمس، فبدا الكون اصفرَ فاقعاً، قلتت فيه الرؤيا، وانسحب السراب في المرآة الجانبية ليحل غبار مريض، انتشر متسارعاً في الآفاق، فيما بدا الاخ اكثر ضيقاً وهو يتنفس بصعوبة؛ وما تزال عيناه ثابتتين بوجه الحاج- الذي تثاقل رأسهُ-؛ تتخاطفان بين المرآة المعتمة والشارع الذي ضاعت ملامحه والاخ المرتبك لسبب لا يعرفهُ والذي اتضح على وجهه ألم مدفون؛ وبرزت ثآليل جبهته، تشع فيها الندبة الصغيرة السوداء، كما تفتّق في داخله حزن عنيف بدأ يطفو على عينيه المجهدتين اللتين أحالهما الغبار الى فصيّن

معتمين تلاشت فيهما لمعة الشمس المتوهجة، وحلّ فيهما ذابل مخيف، ولكي يتفادى الحاج ما يمكن ان يتفاداه فيما تبقى من الوقت، عكف على السير البطيء، متخذاً من حافة الشارع مسرى بطيناً وهو يتمتم بكل ما يحفظه من آيات، مجيلاً نظره المتعب هنا وهناك؛ في الجو المترب المنفرش على القرى الميتة والسواقي الناشفة والطبيعة المكتنفة بالغموض المصفر، ثم الى السيد وكأنما ينتظر منه ما لا يريده.

ولكي يدرب نفسه على الكلام قال ناظراً اليه وهو ينفث من فمه حفنة غبار:

(هذه عاصفة موسمية تهب من الصحراء القريبة..)

ثم واصل متشجعاً:

(... بعد دقائق و تروح... ولم يبقَ إلاّ الوقت القليل إن شاء الله...)

سعل الرجل وبصق في باطن يشماغه الملفوف على نصف وجهه الاسفل وعيناه تحتقنان ووجهه ينكمش ويتضاءل وقال بصعوبة:

- (يا حاج..... ما يهمني هو ان تصل الوالدة الى قبرها لترتاح من هذي الدنيا وبلائها... عسى الله ان تصل..... سالمة!)

قال الحاج كلاماً ثم اقفل فمه، ثم عاد وقال:

(الغبار سيروح بعد وقت قليل، لقد تعودنا على عواصف الصيف، وإن شاء الله ستصل الى قبرها..... وترتاح!)

لم تخفت عاصفة التراب بعد وقت قليل، وتلاشى الاخوان الاصغران في سَورةِ الغبار المحاصَر، وبدا كل واحد منهما متذمراً بالجو الملبد بالحر اللاسع؛ فافترقا الى جهتين، فيما قال الاخ بصوت ضعيف يكتنفه الوهن:

-(يا حاج..... ستعود اليك الاقدار للمرة الاخيرة فامنعها قدر ما تستطيع واكتم امرها... يكتب الله لك اجراً...!!)
بهت الحاج وانكمش متنقل النظرات بين المرآة الجانبية الصفراء والشارع المغطى بكتل التراب، ولم يكن متأهباً بما يكفي لمواجهة ما دوّخ رأسه كل الساعات الثقيلة الماضية، غير ان نظرهُ انشدَ ثانية الى شاشة المرآة الصفراء، فالتقطت عيناه على نحو عاجل اشباحاً مضطربة في مسافة لم يقدر على تخمينها، وانفتحت شاشته الصغيرة المغبّرة على اشباح كلاب ملساء تنهب الشارع الخلفي بسرعة متناهية وهي تشق صدر العاصفة بعناد لا نظير له، وطار بعضها متقادماً باجنحة رمادية أو لا لون لها، صاح الحاج بصوت غريب وكأنما فلت الزمام منه هذه المرة ايضاً؛ واختلط الخوف بالاجنحة العملاقة المترادفة امامه، وانفتقت المرآة عن ضراوة متوحشة يعرف وطأتها على الجسد المأكول؛ إذ انهبدت الكلاب على سقف السيارة؛ الكلب تلو الكلب، متصادمة الاجنحة، تتصارع بسعار مخيف وهي تمزق بقايا العباءة وتخلع غطاء التابوت وتقطّع الكفن وتتوالى على افتراس الجسد المنهوش.صاح الحاج بذعر:
(... الكلاب!!)
كانت الرؤية معفرة بالمرعب والغريب، والسيد الكبير قد اسند رأسه على كتفه الايمن، وسباق الضواري الملساء الكاسرة يزدحم مع الغبار بضجة يعجب الحاج ان لا احداً غيره يراها بوضوح، كما يرى جسد المرأة وقد تناهبته الانياب والمخالب، ويسمعها كما يسمع العاصفة التي امامه، وهي تغلق منافذ النجاة عليه، وتشهدهُ على موت المرأة الدموي

على مدار الوقت الممض، وما يزال الاخوان الاخران مفترقين الى جهتين، مخدرّين فيما علا شخير الاخ الكبير الملتف على نفسه كأنه مختنق، وظل الحاج متوقف القلب، هلعاً، مشلول الاطراف، تدرج السيارة به دون ان يكون قادراً حتى على النظر الى اي شيء سوى تمزيق الجسد الذي يراه بين انياب الكلاب التي تداخلت رؤوسها في جوف التابوت؛ ونزف الدماء السوداء على الالسنة المتدلية الطويلة كالسواطير المشحوذة.

وبالتحديق المفزوع في مشهد الافتراس الوحشي استطالت مرآته لتكشف له عيوناً مفتوحة كمواقد الجمر المستعرة لكلاب تقف شامخة باجسادها الترابية الملساء العضلة تتشمم بقايا الدماء بمناخير مطاطية حمراء، مدوّرة جارفة، تتسافل تحتها انياب مبرومة بحجم الاظلاف، وتنتصب آذانها كمغارف؛ او تتهدل وتتطاول حتى تغط في نثار الدم، وعندما فكّر الحاج باسقاطها بالوقوف المفاجيء اعترته رعدة وخفق قلبه بشدة، فطرد الفكرة من رأسه بعجالة، فيما ظلت رياح الصحراء المنهمرة تشتد والغبار يتموج ويتغامق بكثافة عالية، والكلاب تلحس بقايا الدماء، منتصبة كقدر شاخص لم يجد الحاج بُداً من الامتثال اليه والرضوخ لهذا الحلم الصعب والرؤية الدامية.

تساءل احد الرأسين من الخلف:

(هل نام الاخ؟)

ردّ الحاج بامتعاض:

(بدأ الطريق يتعبه...)

قال ذات الرأس:

(صار الجو احمر!)
قال الرأس الآخر بتسليم:
(ستنقلب الدنيا...!!)
قال مشكور بصوت خافت وعيناه تنتقلان بين الشارع الغامق وبين المرآة:
(انقلبت الدنيا وما تزال تنقلب!!)
واردف مسرعاً:
(لا حافظ إلاّ الله... ربنا يسهل الامور).
تأكد عبر المرآة التي اجهدتهُ كثيراً إن الكلاب لم تبقِ من الجسد الميت إلا الرائحة العفنة والتابوت الممدود؛ ورأى كما رآى قبل ساعة، إنها تتابعت في طيرانها ملوثة بالدماء والصديد؛ حملها الغبار وتعالت حارج مرآته الصغيرة إلا احدها فقد ظل جالساً في جوف التابوت يلعق وجهه بلسانه المطاطي الاحمر الطويل وعيناه تزداد جمراً وقسوة؛ يواجه العاصفة الحمراء ببوز ممدود ولسان متهدل كاشفاً لحماً بشرياً مثروماً عالقاً به؛ وتارة يبتلعه ليبقى وجهه جامداً لا يعبر عن شيء محتمل، وفي تباطؤ السيارة المضني عكف الاخ الاكبر على صمته النائم، فيما ظل الآخران منشغلين بالكون الذي استحال فقاعة حمراء واحدة، وفزّ الحاج على مر الوقت وعيناه تتناوبان النظر الى عيني الكلب المخمرّتين بالوهج والدم، الكلب الوحيد الرابض على صدر التابوت، كأنما فقد اجنحته وصعُب عليه الرحيل الى اي مكان.
قال صوت من ورائه:
(اسرع قليلاً يا حاج فالمرحومة تأخرت عن قبرها!)
سحب الحاج عينيه من الكلب الرابض عنوة:

(لا ارى من الطريق شيئاً.. لم أرَ عاصفة كهذه من قبل!)
ظل الاخ الاكبر مطبقاً على صمته او نومه متخذاً وضع الجنين، ودرجت السيارة مهتدية بفواصل الرؤية المتاحة في المسافات الطويلة ببطء، والكلب الرابض يتمطى وعيناه تزدادان احمراراً، وقد تأكد للحاج إنه يراه ويبث اليه مع اللحظات المتوارية خلف الخوف المتراكب عينين ناريتين لم يكن قادراً على التفسير لونهما المفترس، فيما صار من الواضح للحاج ان الاخوين الاصغرين كانا يتبرمان لتطاول المسافة ويتهامسان بضجر عندما يلتقي رأساهما خلفه ثم يفترقان حيث ينحسر بين وجهيهما الغبار، ويعود الحاج لتأمل الحال بقلب متسارع متفكراً بما قاله الرجل الهامد، نظر اليه بلا قصد ثم اشاح عنه النظر متداخلاً في رأسه الدانخ بما قاله على مر الوقت، فاعتملت فيه مشاهد ورؤى متناثرة تقادمت في ذاكرته. وتداعت اليه القرية المنزوية في حلق الهور.
وكان بوده لو انتخى الآن بالسادة والشيوخ والعرافات والجنيات بهذه المصيبة التي حلت به؛ غير انه طرد الجميع من رأسه شامتاً وخانفاً؛ إلاّ وجه زوجته الحاجة الذي اقترب الى شاشة رأسه، صبوحاً، وضيئاً، صادقاً، لكنه استبعده في ذات اللحظة التي وجد فيها الحاجة من ان تقترب اليه؛ فهذا الجو الغريب، المخيف، اغلق عليه منافذ النجاة، واعاد اليه التشبث بما شاب له الرأس من حكايات العرافات والمشعوذات والساحرات؛ الساحرات المتلفعات بمسوح الفضيلة والهداية والعزلة الكاذبة التي يجن بها فقراء القرى والمعدان الحالمون بتقبيل الايدي المباركة التي تحرق الجن والانس والمارقين على المشورة العمياء؛ غير انه استغفر الله في سره واعاد

ذلك مرات عدة؛ منجذباً الى روحه النقية وما يدريه عن بيوت الاجاويد، وهؤلاء الاخة الماضون الى المقبرة المشهودة بدفن نسلهم العزيز الى سابع ظهر، الساكتون باستسلام لما يجري في رحلة الدفن المعذّبة للأم المبجلة التي تناهشتها الكلاب الملساء في رحلة دموية قاسية غريبة، ولا يريد ان يركن لما حدث ورآه بعينيه بغشاوة يقظة، ولا يريد ان يصدق ما صدفه في جو متحول خلط عليه الالوان والرؤى والكلاب المجنحة التي تبعته من اطراف القرية، نبحت خلف السيارة، مختلطة بالتراب، وذاب نباحها عندما استوى الدرب الترابي بين صفوف النخيل وها هي تعود من جديد، تنبثق من المرآة، متصاغرة، في افق ليس بعيداً، فيما هشّ الكلب الرابض وتفتح بوزه عن عينين ما يزال الاتقاد مشتعلاً فيهما، تنظران الى الحشد المتطامن المتصاغر، ثم تعودان وترتكزان في العينين المتلصصتين من المرآة المحمومة.

سعل احد الرجلين مختنقاً، واقتربت قرى مغيبة في الغبار وتوارت متباطئة كاشفة وقتاً متبقياً بين الغبار المتزايد الذي لفّ القرى والمدن الصغيرة المتقاربة، وتواصل الرجل في سعاله الجاف فقطع عليه حبل القرية الذي اتصل به لانذاً.

قال الابن الآخر بضيق:

(بالله عليك يا حاج أما زالت النجف بعيدة؟ (

رد الحاج بتطمين:

(لا... لا... نحن على اطرافها).

تساءل الآخر:

(أما يزال الاخ نائماً؟)

عبرت السيارة جسراً ثم استدارت الى جهة الغرب؛ متخذة

من شارع ترابي ضيق طريقاً مختصراً فتكشفت غابات نخل على جانبيه، تجاهد ان تبقى شاخصة وتنعتق من الغبار المُطبق، وبيوت تتقارب وتتباعد او تنزوي بين الغابات الظليلة؛ فتهادت ظهيرة القرية من جديد، ساكنة، بطيئة، اليفة، وانبثق الوجه الصبوح لزوجته الحاجة من ركام رأسه ثانية وتقدم على الوجوه المتزاحمة التي كان يمكن ان تنعتق في الصمت المشكوك لكنه ظل يغذ السير مدردماً بصوت لا يسمعه هو... والله لا افهم شيئاً!!..

لا اعرف ما الذي يحدث!! ما الذي جرى!!!... قالت لي الحاجة ذات يوم ونهرتها!!... ولكن استغفر الله من كل شيء... كلام نسوان... خافي الله يا حاجة.... الله فوق الجميع... هذه المرأة رحمة للناس.... عوفي كلام النسوان البطرانات.. خليك انت يا حاج مغمض العيون... المرأة ليست ساحرة يا حاجة... السحر حرام... انا اقول لك يا حاج سيفضح الله تعالى كيد السحرة.. عوفي هذا الكلام ان بعض الظن اثم... سيفضحها الله سيفضحنا الله تعالى...

وما يزال الكلب باسطاً ذراعيه، قابعاً في التابوت بضخامته الملساء المخيفة، وبقايا دماء جافة على منخرية المدرّعين، واحس الحاج ان الوقت اخذ ينحسر، وكان الغبار يلتف على كل شيء؛ فتضيع معالم القرى والمدن وتغيم صورة الكلب من جديد في العينين المرهقتين طوال الساعات، وظل الدرب الترابي يثير الاجساد المخدرة، وتقافزت السيارة مستجيبة لدواسة قدم الحاج، وبدت كالمطاردة مما جعل مرآته ترتخي وتميل فتتجه الى الاسفل لتعكس إحدى حافاتها جزءاً من صورة الدرب المحفور، وعندما استعان بالمرآة الامامية

وجد ان ما خلفه قد تلفع بالاتربة الداكنة المنعقدة بسورات متوالدة، وقد دلف الغبار الى الفضاء المحصور بينهم فازداد سعال الاخوين الاصغرين وظل الاخ الاكبر مقرفصاً كجنين منذ ساعة، ولم يـعُد احد يسأل عنه، وفي الوقت الذي استقامت فيه الكابرس منعتقة من أسر الدرب المحفور، تلقفها درب آخر تظلله بساتين النخيل المتراصّة وبدأ ان الغبار كان اخّف وطأة واقلّ هيجاناً والجو اقل اصفراراً، فكان هذا باعثاً للحاج من ان يزيد من سرعة سيارته قائلاً بتعب:

(نحن في اطراف المقبرة... دخلنا من جنوبها..)

تناول احد الاخوين قنينة ماء ساخن وطشه على وجهه، وفعل الآخر مثله، دون ان يكون ما هو واضح امامهما سوى ان طريق المقبرة يقترب، وان الام المعذبة ستدفن في مثواها الاخير، وان الاخ في نوم عميق وندبته السوداء الصغيرة تلمع بوضوح بسبب العرق الغزير الذي غسلها.

قال احدهما بصوت خفيض:

(لقد تعذبت الوالدة..!)

كان صوت الآخر متحشرجاً:

(اترى ان الميت يتعذب في الطريق الى قبره!!)

رد ذو الصوت الخفيض:

(لا ادري... ولكن لديّ احساس بان المرحومة تعذبت طوال الطريق!!)

عاد الصوت المتحشرج:

(واخونا تعذب على ما يبدو..!)

تدخل الحاج بعد ان سحب عينيه من مرآته المنكتة وبدت العجلات تستجيب للطريق المتوغل بين البساتين:

(كأنه يتعذب فعلاً، فهو يعرف المرحومة لا كما تعرفونها انتم! ولكنها رحمها الله تبقى امكم اولاً واخيراً!!)
قال ذو الصوت الخفيض:
-(عاشت عمرها بالبر والتقوى رحمها الله).
وعقب الصوت المتحشرج:
(وكانت امنيتها ان يتوفاها الله ليلة الجمعة.. لكنها إرادة الله سبحانه وتعالى...)
ابتسم وجه الحاج دون ان يقصد ذلك، فبان وجهه متربأ للاخوين في المرآة الامامية، قبيحاً، مشعثاً، ماكراً.
ولعل الحاج تدارك شكله الناشز لفوره فاغلق فمه وسوى من عقاله، ليبدو اكثر اتزاناً وهو يطوي الطريق مستثمراً انحسار الغبار بين البساتين المندفعة اليه، وما تزال مرآته منكفئة، والكلاب تعوي في رأسه المندثر بالغبار والرؤى الهمجية لأمرأة تحلف القرية برأسها الذي حل في رؤوس الجميع، امرأة من طينة سماوية عجنتها الاقدار وألهمتها الرأي والمشورة والغموض ايضاً.
وما عاد الحاج الذي دفن بيديه موتى القرية من شيوخها الطاعنين بالسن الى شبابها المقتولين في الخلافات العشائرية؛ مذ كان شاباً يطوي المسافات برمشة العين وحتى هذا الكبر الوقور؛ ما عاد الحاج يتذكر شيئاً من كل هذا غير بلوى الكلاب السلوقية الضارية باجنحتها الخافقة وعيونها النارية المفزعة وأنيابها المبرومة كالأنصال، وتمركز الحدث الجلل في عينين لا نسيا أوصال المرأة المتناثرة بين تلك الانياب والغبار الذي ادرك نصف المسافة الطويلة فغطى المأتم الدموي حتى هذه اللحظة؛ وفي قلب شرخه الحزن والخوف

واستدق في تلافيفه فزع لا ينمحي. ورؤية مشوهة لضباب قرية قديم جاءه الان ليختلط في طيات التراب والبساتين؛ لكنه جاهد كثيراً ان يزيل الضباب وان يمسح الوجه اللجوج لامرأته الحاجة وحكايات النسوان المزروعة في رأسها؛ ويقوض القرية في ذاكرته امام انفتاح البساتين واندفاع سيارته وصمت الاخوين الغافلين عما جرى ويجرب والنوم العميق للاخ الاكبر الذي لا يجد له مبرراً، ولاحت له على بعد مغبر قبة نحاسية تظهر ووتوارى في استدارته التالية وهو يعبر جسراً كبيراً ويجتاز بيوتاً من طابوق لمدينة يعرفها ويود ان يصلي في جامعها المتعالي، غير ان القبة العملاقة شغلته عن رغبته، فكان يتضرع في سره، مختنق العبرات وعيناه تبحثان في المرآة المحنية عن فضيحة آتية، وود ان يستدير الى مقبرة العائلة تجنباً لما سيثيره البشر الغاطسون في الدموع والذنوب والاستغفار وهو يعلى ظهر سيارته تابوتاً وكلباً باسطاً ذراعيه، معفراً بدم بشري طاهر لولية يحلف الرجال والنساء بطهارتها وحبها للمعروف والخير!!...

لكن قبة الامام الذهبية كانت تدعوه بقوة للشفاعة والبكاء والتكفير والخشوع ونسيان الماضي، وكانت تجره الى الخوض في دموعه التي انفلتت عنوة وهو يتوغل بين حشد السيارات وتزاحم البشر، وما كانت جهشته التي بدت كصرخة محبوسة إلا إيذاناً بانفصاله عن روحه الملتاعة عبر الساعات الثقيلة، الطويلة، المفترسة، وهو يتقدم صوب الرائحة الاثيرة الجاذبة الممتدة في أنساغ الهواء الذي يشمه بروح ارهقتها الرؤى المخيفة، وحددها زمن القرية الضارب في الذاكرة العمياء؛ الرائحة المتشربة في كيانه الاول والاخير حين يسعى اليها

كالماخوذ حاملاً على ظهره ميتاً أو قتيلاً، تشيله ريح سماوية من قرية ابتعدت قسراً عن الحياة التي يراها ويرى الوانها البراقة وتحطه على القبة الحانية كشيخ وقور يلم رعيته تحت فضائه العابق بسر الحياة السرمدية؛ إلاّ هذه المرة الغريبة، التي سرقت منه شوق اللقاء الى رائحته الاليفة العابقة فيه ابداً، وزرعت في روحه القنية رائحة الكلاب السلوقية والدم والغبار والوحشة والغموض الذي كاد يمسك مفاتيحه الاولى ذات يوم، لولا إنه أصر على ان يكون اعمى القلب، غليظ القلب على امرأته الحاجة، لكنه يعود الآن والرائحة الخانسة تملأ تجاويفه، متضرعاً كمن ارتكب المعاصي البشرية برمتها، باكياً، شاكياً، طافر القلب، متعثر الخطوات، يسابق دقائق التراب وهو يصل الى مثابته العظيمة، يتقدمه نشيجه المحتبس وصراخه المدفون، وجثة النار التي حملها وقتاً حفر في مساربه البعيدة أخاديدَ من ألم مبرّح؛ تناوبت في حفرها الكلاب المجنحة والغبار الحار الذي لا ينقطع وأوصال المرأة التي كانت صباح اليوم امرأة فاضلة يقصدها القاصي والداني في قرى الاهوار القريبة والبعيدة ولكنها مع اقتراب الموكب الصغير تحوّلت الى جثة منهوشة، مقطعة، متلاشية، رائحة فطيسة لا تطاق، ذرات دماء فتتها العاصفة الصفراء والغبار الاحمر، كفن مقزز، عباءة متطايرة كلحاء، ذكرى مشوشة في الشارع الطويل، ودموع غزيرة تختصر اليأس والامل في عيني الحاج المخدوع بما مضى.

توقفت السيارة ملطخة بالاتربة كأنها خارجة من حفرة عميقة، وشخصت أنظار السابلة الى سقف السيارة، فتوقف قلب الحاج، واحتبس الدم في عروقه وتيبّس الهواء في منخريه.

توجه بكيانه المخذول نحو القبة السرمدية وعيناه تنحشران بالدموع، فيما بقيت اعماقه تلهج بالدعاء للمعجزة والمستحيل لستر الاخوة العارفين الساكتين على خوف من فضيحة والولية الظالمة بسحرها الاسود الذ فرّق ما فرّق من ابناء وآباء وزوجات وأمهات وارامل وزرع الفتن بين الاخة والمحبين والعشاق الملتاعين وهم يجوبون البراري والشطآن عن فسحة أمل....

اللهم استرنا بسترك وبحق الإمام الذي حمل راية رسولك الكريم.... اللهم اغفر لنا ذنوبنا ما تقدّم منها وما تأخر... اللهم اغفر لها ذنوبها و كفرّ عنها سيئاتها... اللهم اغفر للاخوة ذلهم وعارهم في الدنيا والآخرة.... اللهم اقتل الشيطان في نفوسنا وطهرنا من الآثام والخطايا... اللهم بحق هذا الامام العظيم اجعل يومنا سلاماً ولا تُخزنا امام الناس...

وفي احتدام اللحظات الحرجة المكتظة باللوعة والألم واليأس انفتحت عينا الحاج الغارقتان على جمهرة العابرين، ورأى الايدي تلوّح للراحلة المجهولة تلويحة الوداع الاخير، فأدرك ان رؤياه مضببة وغبرّة، غير مرئية، رؤيا الشاهد الوحيد المبتلى بالسر المخيف؛ وأفاق من خذلانه قبل صيحة الفزع التي كان ينتظرها تأتي هادرة من فضاء القبة الحانية على الجموع الذليلة؛ لكن الخوف ما زال يكتنفه ويستشري بجسمه البارد الذي لفظ آخر ارتعاشة وهو يرى الاخوين الصغيرين الطالعين من جوف السيارة يفلاّن حبال التابوت وقد انضم اليهما شخصان عابران آخران، بينما ظل الاخ الاكبر؛ بعيني الحاج المجهدتين؛ متقنفذاً على نفسه منذ وقت طويل دون ان يتحفز للمشاركة في وقفة التابوت الاخيرة، وكأنما اختنقت

انفاسه في رحلة الغبار المضنية، وبدت ندبتهُ اكبر حجماً ولمعاناً، وبرزت كشيء مقزز، ولكنها كانت ذابلة كما يراها الحاج للمرة الاخيرة، فخاف ان يفسر هذه اللحظة المرتبكة التي يتوقعها.

واتاه إحساس لم يكن غريباً من ان كل شيء قد انتهى؛ وأقلقه شعور مرق في خاطره سريعاً بالنهاية السوداء لرحلة الجنازة، فربما ستتبعها جنازة اخرى التمت على دواخلها المعرّاة واختارت قدرها الآن صاغرة؛ لتذبل كشيء تالف؛ جنازة الخوف من افتضاح السر المغلق الذي تناوبت على الامتثال لسطوته اجيال القرية برمتها؛ وما كان صوت زوجته الحاجة منذ سنين بعيدة إلاّ هراءُ نسوان؛ لكنه انتبه الى الآخرين شرعوا بإنزال التابوت مهمهمين باصوات متقاطعة ملؤها التكفير والاستغفار والصلوات، ولم يكن لحظتها قادراً على الاعتراف كلياً بالحقيقة المتكشفة بقلبه، بأمل طرد الخواطر العاصفة الهائجة في اعماقه المبتلاة، فخفّ جسده وتدرع بصمت حائر، تاركاً مقعده وعيناه ترمشان بتتابع لم يكن قادراً على إمساك توترهما الآتي وهما تنغلقان وتنفتحان على كلاب وحشية مجنحة افترست المرأة التي ماتت في القرية، ولية، فاضلة، مبجلة، ولم تكن عيناه غافلتين عن صورة كلب املس رابض في الجوف الخانس بلسان طويل يقطرّ دماً وعينين مشاعلتين بالنار.....

كانت العباءة تتدلى متناثرة كراية مزقتها النبال، ولاح له التابوت كما لو كان صندوقاً متهرئاً أُعيد لصقه اكثر من مرة. وعندما تم انزاله الى الارض شكّ الحاج بثقله، وهاجمته رائحة اكثر عفونة وقرفاً إلا انه ترك الامر على الرجال

الآخرين المنشغلين بتصفيف العباءة وشدها، وقلبه الخافق لا يهدأ، وما برح الاخوان الآخران يتناوبان في نشيج متقطع حينما علت صيحات المشيعين وهم يضعون التابوت على الاكتاف متوجهين به الى حضرة الامام ولم يكن الحاج متحمساً في مسايرة اللحظة الاخيرة، وكان يلمح آخر قطرات من الدماء السود تلطخ الاكتاف.

2002 بغداد
تنشر لاول مرة في المجموعة

الليلة الأخيرة في حياة الأميرة

لم تكن ثمة غيرهما تحوسان في الصمت المشوش، ومع هذا قادتها المرأة الى قاع الصريفة الرطب... دفعتها دفعاً وهي حريصة على عدم اثارتها بالشكل الذي تتوقعه، حتى كانت تُستفز من تكسر القصب اليابس تحت قدميها وتشعر بالصخب يتفجر في صمتهما المغشوش، لكنها عبرت مسرعة موتورة، والفتاة تتبعها الى القاع ذي الرائحة المظلمة!

همست المرأة وهي تشد فوطتها على وجهها:

«الليلة يأتون...!»

هزت الفتاة رأسها دون ان تنطق:

«احذرك..»

نزعت الفتاة فوطتها وهي تمط رقبتها العارية كما لو كانت تعني رطوبة القاع وظلمته لكنها آثرت الصمت ايضاً، فيما رأت المرأة حيرتها فاقتربت من الرقبة العارية وهمست بصوتٍ راجف.

«سيقطعون رقبتك إن سمعوكِ ولو تتأففيّن!»

صاحت الرقبة العارية بعصبية:

«لنخرج اولاً من هذا القبر..»

تخاطفت عينا المرأة بذعر وهي تهمس بتوتر:
«ش.. إش»
«ليأتوا كلهم... ماذا فعلتُ!»
«إش... إياك ان تتكلمي هكذا أمامهم... فقد يقطعون رقبتك»
خفتت حدة الصوت فجأة وران صمت منكسر ورأت ان لهجتها تتحشرج وأن وجهها يكتسي بملامح حزينة، فقالت بتسليم:
«ماذا تريدون يا أمي!»
وضعت المرأة يديها على كتفي الفتاة فبدتا مثل جناحين مكسورين:
«لا نريد إلاّ الستر يا ابنتي»
«حاشاك يا وحيدتي.. ولكنني أذكرّك... أنهم يقطعون رقبتك كما يقطعون رقبة الشاة!»
التفتت المرأة الى اكثر من اتجاه، كأنما تتأكد من خلو البيت وارهفت أذنيها فجاءها خوار البقرة الحلوب، ونباح الكلب الابهق واصوات متصادمة لريح ودجاج وسعف... ثم قالت بلهجة حازمة:
«اسمعي... الليلة يأتون وتمر الأمور بخير..»
مسحت الفتاة رقبتها المعروقة وهمست بألم.
«انتهى الامر.. ليأتوا..»
ولم تستطع ان تقول شيئاً آخر وفي رأسها يتعاظم دوي قادم من كل مكان فتجحظ عيناها المكحولتان، لذلك انتبهت المرأة الى تلك الانفعالات المحتدمة، بل دخل الى رأسها دوي عنيف، وعجبت كيف يمكن لصغيرتها الوحيدة ان تحتمل كل هذا الألم.
وللحظة خاطفة التقت عيونهما المترقرقة. ثم التثى الجسدان في

احتضانه أمومية وبكتا معاً بحرقة وخوف... حاولتا ان تبكيا بصمت، غير ان الفتاة نشجت بلوعة وبكت بإفراط وجثت على القصب فأصبحت كهيكل يصلي...

«اسكتي..»

حاولت المرأة ان تهدىء من نشيجها. غطت رأسها بالفوطة، فحجبت الرقبة العارية، ثم اعادت احتضانها وهي تتقرفص امامها وتمسح وجهها المبلل.

«لم تعودي صغيرة..»

في عتمة القاع قالت المرأة ايضاً:

«سنة واحدة وتعودين لنا أماً»

في عتمة»الجوخان»قالت المرأة ايضا:

«انت لم تعودي صغيرة»

ظل نشيجها المتقطع يشرخ الصمت والعتمة الرطبة مثل تكسر القصب والقش اليابس، وكانت انفاسها شاخرة توحي ببكاء عميق قد تبكيه الآن؟

إذ لا يتوفر وقت آخر كهذا الوقت امام المرأة التي ما عادت تعرف ماذا تفعل إزاء هذه المحنة وعندما كانت تنظر الى وجه ابنتها تراه صغيراً وترى فيه طفلة وحيدة مدللة مشعثة الشعر قصيرة الثوب تحجل وراء الاغنام وتطمس في السواقي الضحلة، او تعود باكية وجسدها منقب برؤوس الاشواك ذات الاوراد الناعمة الحمراء.احتضنتها من جديد ومدت ساقيها فاراحت رأسها ذا الفوطة الخشنة بين فخذيها فغمرت الفتاة طمأنينة عجيبة وهدأت وانتظمت انفاسها وه ي تشم في ثوب امها رائحة اليفة افتقدتها منذ ان قالوا لها انت كبيرة.

لقد كبرت وكانت تعجب إذ انها اصبحت كبيرة بعد ليلة واحدة

فقط البارحة كانت صغيرة وهذا الصباح قيل لها انت امرأة يجب ان تعرفي انك امرأة ولا يصح ان تتصرفي مثل الصغار، وعندما تتذكر هذا تعيد في رأسها تلك الليلة التي اصبحت لا تعرف تماماً ماذا كانوا يقصدون.

تذكر أنها عادت من الحقل مع والدتها مساء ولم تكن متعبة إلا انها كانت طيلة الوقت في الماء. كان النهر يجري من بين ساقيها بارداً ذا دبيب منعش وملذ وعندما نامت في اول الليل حلمت بالنهر البارد.هدأت الفتاة كما لو نامت وكانت اصابع المرأة تجوس في الخصلات الطويلة النافرة.

تذكرت اشياء كثيرة وكظمت غيظها إذ ما من احد بإمكانه ان يلعب لعبة الأم ويقتنص دورها لكنها حاولت ان تعيد ترتيب الامور بهذه الخلوة المعتمة ، فقالت بصوت خفيض:

«هل أحكي لك حكاية الأميرة الفقيرة!»

تململت الفتاة وهي لما تزل تتشبث بحجر المرأة التي قالت ايضاً بذات الصوت الخفيض:

«منذ كنتِ صغيرة وأنا أحكيها لك»

فتحت الفتاة عينيها كما لو أنها استيقظت من حلم ما لكن المرأة استطردت وصوتها يسع عتمة الجوخان.

«سأحكيها لك وانت امرأة ستتزوج بعد ايام..»

قالت الفتاة وهي تشعرانها تخلصت الى حد ما من اعباء ثقيلة جثمت على صدرها:

«لكنها أميرة..»

قالت المرأة وهي تأخذ حريتها في التحدث:

«وما كانت أميرة أولاً.. كانت مثلك صغيرة وحلوة...»

ردّت الفتاة متسائلة وهي تمدد ساقيها بحرّية:

«وبقيت الى النهاية صغيرة وحلة!»
قالت المرأة وصوتها يرن بين الخصاص الصبية:
«لم تبق الى النهاية صغيرة وحلوة... لقد كذبت عليك...»
صمتت الفتاة وهي تستحضر حكاية قديمة سمعتها مرات كثيرة من هذه المرأة المذعورة:
«كنت صغيرة... ولا يصح ان أقول لك كل شيء.. لا يصح أن أخيفك»
استغرقت الفتاة بالصمت وهي تستمع:
«لا بد من نهاية لكل بداية... ونهاية الأميرة كانت غير ما كنت اقوله لك..؟»
رفعت الفتاة رأسها، وهي تشعر باشياء غير مألوفة تحيط بها.
استطردت المرأة:
«كانت الأميرة مسكينة.... و...»
صاحت الفتاة:»اش... اش... صوتك يرتفع... قد يسمعونك!»
كانت المرأة ترتعش وعيناها تدمعان.
صاحت الفتاة بتعب..
«اهدئي يا أمي... أنا أعرف قصة الأميرة..»
التفت نظراتهما مستفهمة لكن الفتاة قالت:
«اعرف كل شيء... ولكن اسكتي يا أمي... صوتك يرتفع.. والأميرة لا بد وان تضع حداً لكل شيء لقد كانت صغيرة وحلوة وهذا لايكفي..»
ارتعشت المرأة. لمت ساقيها، ويداها مهومتين كما لو تطاردان شبحاً يحوم في الجوخان معهما، في الخلوة الاخيرة لأميرة الماء الصغيرة التي وجدت نفسها مصادفة أنها امرأة وعليها ان تتزوج وتحبل وتنجب صغاراً..

تساءلت المرأة ولم تستطع ان تمنع عينيها من البكاء:
«ومن حكاها لك!»
تكسر القصب تحت قدميها وهي تنهض فنهضت المرأة معها مذعورة وهي تتفرس بعينيها الغامضتين:
«من حكاها لك!»
قالت الفتاة كأنها تحلم:
«انا حكيتها لنفسي... انا اعرف الأميرة المسكينة الصغيرة والحلوة... والمظلومة لا بد ان تفعل ذلك. لم يعد بإمكانها ان تتحمل اي شيء آخر.. الأميرة الصغيرة الحلوة التي اصبحت امرأة بعد حلم ليلة واحدة.. انا اعرف الأميرة يا أمي... انت كنت تكذبين على ابنتك لكنني اعرف ما الذي يجب ان تفعله الأميرة غير ذلك الذي كنتِ تقولينه لي.. آخ يا أميرة يا مسكينة يا...»
كانت عينا المرأة تبكيان ونشيجها يملأ العتمة الرطبة أحسّت ان شيئا ما يخنقها أو حبلاً من حبال السفن يتدلى من سقف الجوخان ودائرته تبحث عن رأسها. شمت شيئاً يحترق ورأت ناراً عاصفة تهب من غرفة عرس لما يزل»محملها»ذا صبغ دبق هجمت عليها رؤى مفزعة وهي تتطلع الى عيني الأميرة المليئتين بماء النهر الجاري..
رأت فيهما ناراً سوداء تتراقص في أول الليلة الاخيرة وملأها عويل مفجوع أرعبها، اقتربت من أميرتها الواقفة كجذع، قالت لها اشياء ما وقالت لها:
«سيأتون الليلة.»
وسمعت الأميرة تقول شيئا له رائحة النار «.....»!

1986

المِغدان

خارج المضيف ظلت ابخرة الليل تتكاثف صاعدة من كواهين البردي وحزم الدغل وصوابيط النباتات الملتمعة الذوائب والاشنات التي تنط فتلقي باغصانها الشوكية الرخوة على سطح الماء كظلال معتمة، حاجبة لمعان اكوام النجوم المزدحمة في سماء شديدة السواد وشديدة الصمت؛ الا من اصوات تتوالد باستمرار لاسراب طيور مهاجرة تمرق خاطفة كخفق اجنحة وضفادع يتقاطع نقيقها بشكلٍ مضجر.
خرير المياه المنزلقة عبر الخصاص القصبية وحافات الصرائف العائمة وعبر مشاحيف رجال (آل واوي) المزدحمة على جرف المضيف.
يتضخم أنين أبوذيات الصيادين ويطويهم ليل الصيد البعيد بسراجاتهم المضيئة فيأتي خافتاً وحزيناً تعقبه حركات مبهمة لاقدام تخبط في مياه ضحلة أو تدوس على قش يابس فتتكسر اضلاعه الهشة وغالباً ما تهمي اشياء ثقيلة في المياه المحيطة بالمضيف فيتشظى الرذاذ ناقراً ظهور آل واوي من خلف القصب.....
هذه الاصوات وغيرها لصدى نباحٍ في الحقول وثغاء

ابقارجائعة وجواميس زاعقة. عادت مع المساء من اهوار بعيدة مندغمة مع كائنات الماء السرية اللابطة.
كانت كلها تبدد صمت السماء العميق وسوادها الشديد، لتتدفق مرة واحدة الى جوف المضيف ذي الثلاث عشرة شبّة والمضاء بلوكسات تركية ساطعة تلم حولها أكواماً من البرغش والنمل الطائر ذي الاجنحة الشفافة وفراشات تحترقُ لوامسها دائماً، تاركةَ ظلالاً سميكة على وجوه آل واوي، كأنما تتواءم مع حيرتهم امام صمت الزاير الذي كان منفعلاً وإن بدا ساكتاً، كما لاحظ الجميع، واصابعه الطويلة تُسقط حبات الكهرب بعصبية منذ وقتٍ بدا طويلاً وثقيلاً على الآخرين، وحين رفع رأسه كانت عيناه مستسلمتين تماماً، غاب امامهما رجال الشيخ تحت سطوع اللوكسات التركية ولم تريا إلا ظلالاً ثقيلة جاثمة، فيما تناهى الى سمعه وبشكل سري صرير الموزر كحشرجات مكتومة، كما لو ان القبضات الماسكة أثرت الانعتاق من الانتظار اللامجدي أمام عناد الشيخ ووحشيته فأثر هو الآخر ان يقول شيئاً يُبدد الصمت الحائر لرجاله، فكانت شفتاه تنطقان همساً مبهماً مما تأكد لهم ان الامر قد اسقط من يده وان الحظ قد خانه هذه المرة، وعليه، كما عليهم، ان يتقبلوا ما يطلبه الشيخ آل موزه مثلما تنص عليه الاعراف والسنين وإلا فنافورات الدم تظل تتفجر من رؤوس الرجال الى يوم القيامة مثلما اعلنها الشيخ عذاب بن مالك آل موزه صراحة، فلا عدد من النساء يُرضيه دية لما وقع ولا حفنة ليرات من الذهب ولا قطيع جواميس لبون، فلم يدر بخلد احد ان القضية لا يمكن حلها الا بهذه الطريقة العنيدة التي ارادها شيخ العشيرة.

ولم يكن احد يتوقع ان عذاب آل موزه يخرج من وقاره ويطالب زاير درويش عليوي آل واوي، وعيناه تقدحان بالغضب وأوصاله ترتعش فترتعش سنواته الستون في المضيف الذي يضمُ حشداً كبيراً من رجال العشيرتين المسلحين.
لم يكن احد يتوقع ان شيخ آل موزه سيفرض على آل واوي قصاصاً غريباً لم تكن له سابقة في الطوائف والحمائل على مر السنين وان يكون»الفصل»في هذه الطريقة القبيحة وان يفعلها هو بنفسه!
ذلك، كما يتهامس الناس في ليل الصرائف هذه اللحظة، إن مثل هذا الحل لو فعله لا يليق بشيخ وقور مثله ما يزال فريضة بين عشائر المعدان الغربية. وحين كرر الشيخ عذاب بن مالك آل موزه مطلب العشيرة بلهجة شريرة تردد صداه في ليل الاهوار وظل رجع آخر ما قاله يرن في آذان رجال آل واوي بشكل فاحش ينذر بعاصفة حقيقية:
«أنا افعلها! وإلا لن تنتهي الدماء بين آل موزه وآل واوي الى يوم القيامة! اصبع فاسد باصبع فاسد!»
فتسربت الى مسامات الجميع قشعريرة خوف وتمسكت الاصابع بنوابض الموزر مرتعشة ومن وراء خصاص بيوت القصب شملت النساء المتنصتات رعشة غريبة من الخوف والحياء هزت اجسادهن المرتجفة والتقت عيونهن على ضوء الفوانيس المغبرة وامضة برغبات وهن يتصورن الحال المخزية التي غرق في فضيحتها شيخ آل موزه فريضة المعدان، حامي العشيرة ورأسها الكبير، فاستعاذت العجائز منهن بالله الحيّ القيوم ورششن بذور الحرمل على المواقد المسجرة، بينما توجس رجال العشيرتين لتزداد قبضاتهم

المعروقة تمسكاً بنوابض الموزر كما لو انهم أحسوا جميعاً هذه اللحظة برائحة الفضيحة التي قد تكلف العشيرتين قطاف رؤوس كثيرة، فيما احتدم بدواخل رجال آل واوي غيظ وهم ينتظرون شيخهم الحكيم ذا الرأي السديد والنباهة والذكاء والخبرة بوصفه فريضة لحمائل المعدان ممن يسكنون شرق بركة الاسماك.

وفي ذات الصمت المخيف ظل الهور بحيواته السرية يسترجع ما قاله شيخ آل موزه فتقشعر ابدان الناس في ليلهم الحالك، لكنهم سرعان ما يستجيبون لثأر العشيرة. فولد الزاير درويش هو الذي الحق العار بهم فالعين بالعين والسن بالسن.

وفي الصمت العميق الذي غرق فيه الزاير كان يتناسل في خلده صخب مدو، كانت طقطقة المسبحة تدوي هي الاخرى بين صمت الرجال كأنها فرقعة الموزر في ادغال البردي. وقبل ان يقول الزاير شيئاً تنحنح وبصق وراءه كما ليتأكد ان بمقدوره ان يتحدث وان صوته باق. لا ينطق إلا بالعقل والحكمة:

«يا شيخ عذاب.... لن يرغمنا احد على فعل ما تريد ولو يصير الهور احمر بدمائنا. وانت تعرف كم هي يابسة رؤوس آل واوي. ولكنني اعطيك الحق، فما تقوله يجري لك، فذلك ما تقره نواميس العشائر، فالعار عار ولو جاء من بقرة!!»

كان صوته يتصادم في اركان المضيف ذي الثلاث عشرة شبّة فيملأ اسماع الجميع إلا رجاله فقد احسوا، برغم نبرته الواضحة، أنه مخذول تماماً وان كلماته تحترق على وهج اللوكسات الساطعة وانه يجاهد كثيراً كي يظل قوياً متوازناً صاحب الرأي السديد وقائل كلمة الحق.

ثم التفت الى اقرب رجاله قائلاً بتسليم:
«العشيرة لا تحتمل إصبعا فاسداً بينها... هذا قدرنا ولا عيب في الثأر!.»
وحين قرر ان يصمت كان رجاله يغرقون في الفضيحة وبنادق الموزر تتكمش بين ايديهم مثل الدمى.
كان الظلام يزداد كثافة خارج المضيف ويزداد زعيق الاصوات الغريبة التي يضج بها ليل الهور بمثل هذه الليلة الموحشة فلا يمكن لاحد ان يتصور كيف سيتم الثأر.
انصرفت أذهان رجال آل واوي الى ولد الزاير المكبل في المشحوف وهو ينوء بالحبال التي تعصر عظامه.
ولو كان فمه طليقاً هذه الليلة بالذات لعفط الشيخ وشتمه بلا تردد ولصاح بملء فيه:
أنني فعلتُ ذلك يا شيخ آل موزه فالمخانيث، يستحقون ان يكونوا مثل الحريم. والرجل لا يعطي طيزه لرجل.... يا شيخ موزه أنا فعلتُ بابنك وسافعله ثانيةً! ومع وقت الثأر المبهم غطت رجال آل واوي غمامة سوداء غشيت عيونهم وغلت دماؤهم لفورة الحنق الذي عصف بكياناتهم ودوخ رؤوسهم اليابسة امام الزاير الذي بدا هيكلاً حائراً في ظلال المضيف الغليظة ورأسه يتصدع بصراع الليل الطويل:
لا يا زاير درويش لو اردنا قتله لفعلنا ذلك من اول يوم. عليك ان تقبل بشرط العشيرة وسوف اقوم انا بذلك!
أنت تفعلها يا شيخ عذاب!
أي انا افعلها يا زاير درويش!! أم تظن ان مائي جف في ظهري! أترضى يا زاير درويش ان يبقى اصبع فاسد في عشيرة آل موزه؟!! أترضى ان نكون شماتة لمعدان

الهور؟!... هل صار آل موزه حريماً؟ ولماذا لا يكون هناك إصبع فاسد بين رجال آل واوي؟ ولماذا ستخنثونا يا آل واوي؟... لمَ فعلتم ذلك يا زاير درويش؟ لماذا يا آل واوي؟ أحس الزاير ان ظلال المضيف تتحوّل الى غيوم داكنة وان شعاع اللوكسات يصير انصالاً مبرومة النهايات تشير اليه والى رجاله فاخذ يلملم اطراف عباءته المرعز المذهبة قبل ان ينهض متثاقلاً ويتهيأ كل رجال آل واوي الحانقين ليقفوا جميعاً تتراقص ظلالهم على قصب المضيف، فيما خرج ثلاثة رجال وعادوا بعد لحظات مرت كريهة ومُرّة يحملان صبيا مكبلا بالحبال ينط بين أيديهم ويرفس برجليه، كان صغيرا وحافيا يرتدي دشداشة مقلمة بلون ازرق فاتح وفمه يفح تحت اليشماغ الذي الغلقه بقوة. رموه في منتصف المضيف وخرجوا تباعاً الى الظلام المتسربل بأبخرة خانقة. فيما كان الشيخ عذاب بن مالك آل موزه يتفرس بالخارجين بذات الغضب شامتاً يملأه زهو فارغ وهو ينظر الى الصبي الذي يكافح كي يتخلص من قيوده الثقيلة بينما هجم اربعة رجال على الصبي وقيدوا رجليه بإحكام مسيطرين على جموحه ونفوره ووضعوه مربوطاً كما لو كان يصلي ورفع احدهم دشداشته المقلمة، فبانت مؤخرته الصغيرة الملحاء مبقعة بالحصف. ثم اطفأوا اللوكسات وخرجوا ظافرين تاركين وراءهم ظلاماً حالكاً فيما اخذ الشيخ يخلع سرواله السميك بعد ان فتح حزامه الجلد وقذف بعباءته المقصبة بالحرير الخالص. وبرك وراء الصبي المصلي متحسساً لحمه اليابس. ثم احتضن جسده المنكمش ساحباً كتفيه النحيلتين اليه، فتراجع جسده واصطدمت مؤخرته الملحاء المحصفة بعمود رخو

سرعان ما دبت فيه الحياة فغلظ متحولاً الى عمود حار اندفع الى فتحته فالتهبت بنبع نار وجعلته يصرخ صراخاً طفولياً مريراً هز اركان المضيف وافزع الشيخ المحتقن الذي وجد نفسه يفعل ذلك بجسد سلحفاة شائطة وقد تشقق درعها المبقع وفيما كان الصراخ يزداد مرارة ويتسرب الى فضاء الهور كانت عشرات الاطلاقات تتدفق من باب المضيف منهمرة من بخار الظلام باتجاه الصوت الذبيح والشيخ الذي يبرك على درع السلحفاة.

1987 / 5 / 21

غناء مستمر

كما لو كانت تعيش على حافة خنجر معقوف. هكذا قريتنا. شأن كل قرى المعدان المعزولة في اعماق الهور: إذ لا توجد فيها ثوابت واضحة إلا سننها التي نحفظها كما نحفظ اسماءنا، وحتى هذه السنن فهي عرضة للاهواء والظروف والامزجة، ويا ما شخبت الدماء من الصدور والرقاب والبطون بسبب التمرد على هذه الثوابت القاسية، على ان كل شيء جائز في هذه الدنيا...

ومن يدري ماذا سيحصل في الغد، ولكن قد لا يحصل شيئ ابدا امام محنة لفرد او جماعة فكثيرٌ من رجال قريتنا يتمتعون بعقول رشيدة ويتصرفون، في اغلب الاحيان بحكمة وثبات، ومن المؤكد انهم كانوا قادرين على تجفيف نهر طويل ليصطادوا سمكة واحدة! هكذا ببساطة!! ولعل

«عيدان ابن الزاير خلف متروس آل عامر»كان مثالا على هذا! اصطاد سمكته بهذه الطريقة الغريبة تركها تحتضر دون ان يمد اصابعه اليها! وهو يزفر ابوذياته الشجية ويجهش كلما يدرك ان

«نبعة»ضاعت منه الى الابد. فيهيم في اعماق مسكونة بالعزلة

والوحشة، يصفر من حولها الحزن فينيبه بالغناء الارم، في تلك البحة التي تطرق البيوت القصبية وهي تجتاز الممرات القصبية معذبة وحزينة، تندب الايام البهيجة التي ضاعت بلا سبب وتستحضر في حشرجاتها وجه صبية بعينين مكحولتين وشفتين مثل رطبتين وجسد مثل الصفصافة، نحيل وباسق وجميل، وما كان على عيدان إلا ان يفعل هذا، قال اتركوه لي، انا اعرف كيف ساقتله وانا سأثأر ل نبعة اتركوني اغني فقط.

فما من شيء يسعدني بعدها إلا الغناء... وكان بالامكان تسوية المسألة ببساطة شديدة وتتم على بركة الله... لكن الشيطان كان جاثما على بعض القلوب... وهكذا انهاها (عاتي خلف) بالشكل الذي اراده طمعاً بالجواميس والابقار. وتقرباً الى رجل ما كان عليه ان يتقرب بهذا الشكل على حسابه وعلى حساب عيدان فتانا الشهم الذي خيبه عاتي خلف حين زوجّ ابنته الى الرجل المزواج. لتكون الرابعة على سنة الله ورسوله وبشهادة رجلين امام السيد احمد، بمهر مقدمه عشر جواميس وحولي وست بقرات ومائة دينار وبعض قواصر الحنطة والشعير، وطبعا ما كان احد يدري لماذا ركب الشيطان رأسه وايبسه ولماذا هذا العناد الذي افشل وساطات كثيرة لرجال اخيار واجاويد وذوي سمعة طيبة وسادة شرفاء تحلف العامة برؤوسهم لتزويج ابنته، الذي كما كنا نعرف انه يعشقها ويهيم بها. ومن اجلها كان غناؤه الحزين يوقظ الصباحات المبكرة فيملأ بيوتنا واحلامنا ومزارعنا، حتى الليالي المظلمة كان لها موعد مع صوت عيدان وهو يزفر ابونياته من قلب عاشق محترق سكن الحب مياسمه فاغرقه بلوعة مرة رفرفت بيننا

غناءً موجعاً فريداً في حزنه، لكن ما من احد كان قادراً على اقناع رجل ذي رأس يابس وقلب يسكنه الشيطان وما كان احد قادراً على إجباره لجمع الرأسين على وسادة حلال، وكادت تشب نزاعات، لكن الله كان يسترها قبل ان تتأجج فعيدان كان شهماً بحق، لانه كان عاشقا لقد كان يقول:

اتركوه لي... فانا اعرف كيف انشف مياه الهور من حوله، وكنا نخاف، فقد يغويه الشيطان ويقدم على فعلة ما، تقطف بعدها رؤوس وتحترق مصائر وتشب نار ما يطفؤها احد إلا وقد احرقت اليابس والاخضر، ومن مرة الى اخرى ظل عاتي، يزداد عناداً بل منع ابنته من الخروج الى الهور وشددَ عليها المراقبة، وكان يقول لها كل صباح وكل مساء كما تقول نساء قريتنا

«ستكونين عاري.... ولكنني ساقطع رقبتك..»

وتقول النساء انها ذبلت وأرقها الخوف وكانت تبكي في كل الاوقات حتى زوّجها عاتي الى كاظم طمعا بجواميسه وتقربا الى ميراثه الكبير. فقطع بذلك كل جهود الرجال الاشراف. وخفتت نار القرية وتأسف الكثيرون ولعنوا الطمع واهله، وظل عيدان وحده يجوب الاهوار بغنائه الحزين.

وكانت ابوذياته تطرق القلوب وتثير الاسرار وهي تطر العزلة الكبيرة متحشرجة وحزينة تندب الدهر الغادر، وتناغي صبية جميلة لها عينان مكحولتان وشفتان رطبتين وجسد كصفصافة، وعندما يغيب عيدان بعض الوقت في تلك المعزولة يدلنا عليه صوته الشجي فنعرف انه يحترق....

أنه لا ينساها ابداً. قلنا ان الزمان سينسيه وانها راحت الى الابد، إلا انه ظل مصرا على هذا العذاب الجميل الذي يدمي

القلوب ويثير الاسى في نفوسنا اياماً وليالي طويلة بعيدا عنا في بطن الهور إلا صوته الذييتهادى مع النسائم المبكرة او في لحظات الافول النازلة في غسق الاهوار البعيدة وكان كل شيء يمر بسلام..

لولا عاتي خلف ايضا! فذات فجر بارد كان يهب من بيته وهو يزمجر حاملا بندقيته المسروقة... يا اهل القرية لقد صبرت كثيراً عليه.. وانتم تشهدون اوقفوا صوته... وإلا اخرسته بصلية... وعندما هرع رجالنا اليه.. كان على قدر كبير من العصبية... وكان الغضب يرتسم على وجهه.. قلنا له:

هون على نفسك يا رجل... لكنه صاح:

لا اريد ان اسمع غناءه.. اوقفوه.. وإلا قتلته!!

استنكرنا مثل هذا الكلام، إذ ما شأنه بغناء عيدان البعيد.

«عيب يا عاتي ان تقول مثل هذا الاكلام..»

«انه يلحق العار بي!»

«ما من احد يمنع احدا من الغناء»

«اسكتوه وإلا جعلت الدم يملأ قرى المعدان»

صوت عيدان يدلف الى كل مكان في الصباحات الباردة والمساءات المرتخية، عذباً شجياً وحزيناً، وعاتي يعيد تنهيداته بغضب، وكان يطلق النار على بقايا الصوت، فيتردد صدى الطلقات. ثم يعقبه صوت عيدان قادما من الادغال والاحراش وصوابيط القصب... حزيناً واليفاً...

وما من احد كان يتمكن من حسم مثل هذا الصراع الجديد. وتهيأت القرية لعواقب تنذر بشرور لا حصر لها، وعاتي خلف يصرخ كل صباح ويطلق الرصاص على الفضاء

فيعقبه صدى غناء شفاف يطرق الاسرار برفق، ويدخل القلوب الغضة فيسكنها حباً عظيماً.
كان علينا ان نفعل شيئاً إلا اننا لم نستطع، تدخل السادة الاشراف والرجال الاجاويد وذوو السمعة الطيبة من رجالات القرى الاخرى إلا ان احداً منهم لم يفلح بايقاف الصوت الهادر القادم من كل مكان.
وكان عاتي قريبا من الجنون، يصرخ يوميا مرات عدة كلما يسمع صوته قادما من الاهوار. فلم يحتمل اخيراً وقرر الهجرة الى قرية اخرى، وفعلا هجر قريتنا ذات ليلة ممطرة، إلا انه وجد صوت عيدان يملأ كل مكان وفي كل وقت ... صوت عذب... فيه أسى ولوعة وعتاب على الدهر الغادر الذي ابعده الى هذه العزلة وقيل ان عاتي هاجر الى قرية اخرى..
لكنه كان يسمع صوت عيدان ايضا... وهكذا ظل ينتقل من قرية الى اخرى. والصوت الحزين يتبعه أينما يروح.. صوت عظيم ينتقل مع الريح وهو يحكي قصة عشق عن حبيبة صفصافة ذات عينين مكحولتين وشفتين مثل رطبتين.
قيلت اشياء كثيرة على مر الايام..
قيل مات عاتي خلف..
وقيل مات منتحرا لانه لم يستطع ان يمنع نشيج غناءِ اسودٍ مستمر.

حلم سمكة

طرّ الصباح على اسراب الحذاف فملأ رفيف اجنحتها فضاءً معزولاً يحيط بمستعمرات البردي الغاطسة، فيما انتهت هذه اللحظة رحلة مشاحيف الليل الثلاثة وتهادت في مجرى الماء يغسلها ندى الصباح ورذاذ الشمس التي نهضت من حافة بعيدة في الهور.

وفي قوس السلف المندفع الى دغل القصب والجولان اندفعت طرادة سوداء منزلقة على سطح الماء كحلم متأخر من ليلة البارحة الباردة وشق ظل ذهبي لفتاة صفحة المياه المترقرقة في صدر الطرادة سرعان ما يتشوش ذلك الظل الذهبي وهي تغرز في بطنه مرديا طويلا، ثم يعود مع الاندفاعة الثانية الى الصفاء، وتلتم شظاياه حتى خروجه من ذلك القوس باتجاه مجرى الماء الضيق، حيث تصطف قامات البردي الخضراء وحيث تضيع الظلال الزاحفة كلما امعنت في التوغل خارج قوس السلف، إذ تخفت الاصوات عادة، ويعود حلم قديم يدغدغ عينيها ويلتحم مع عزلتها في الماء والاخضرار، لتجد نفسها كل يوم في وحشة البردي الصافرة، تتخاطف من حولها القبرات والزرازير ويبدد سكونها الى حد ما رفيف اسراب

الحذاف وهي تعود الى لحظتها ثم يهبط صمت ثقيل مألوف تنفرد فيه حواسها بالتقاط كل نأمة وكل طرطشة، وعلى سبيل التحسب فهي تضع في خصرها دائماً منجلاً معقوفا يجعلها شديدة الهدوء قبل ان تحلم او تترك جسدها يتلذذ ببرودة ماء الصباح الجديد، وخارج مجرى الماء الضيق تباطأت ثم دفت الى ممر أضيق تتشابك على جانبيه رؤوس القصب والبردي، فدخلت تحت خيمة من الظلال، فيما كانت المشاحيف الثلاثة القادمة من رحلة الليل قد مرقت في الدغل والنباتات وسكنت وبان على رجالها الاربعة تعب ليل طويل وهم يتمسكون بأنيال البردي وعيونهم تتخاطف من وراء يشاميغهم التي احكموا لفها على وجوههم، ولم تكن المسافة بينهم وبين الفتاة إلا جداراً من فراغ وصباح وبردي، نزل احدهم الى الماء فانفتحت وراءه دشداشته واخذ يتجه الى الجدار المتحرك خابطا المياه بحذر، ارهفت الفتاة اذنيها، وصوت الماء يتحرك فترى رؤوس القصب تتحرك وكانت تحسب المسافة القريبة بقلق، إذ ثمة من يشق الدغل صوبها.

كانت في كل مرة تجد خنزيرا او جاموسة ضالة، فتعرف كيف تنزلق بطرادتها الى المجرى الاخر، إلا انها أيقنت، ولا تدري لماذا، ان القادم رجل، شمت رائحته الغريبة، جمدت في طرادتها. حتى أطلّ وجهه الملثم من فجوة القصب. قال لها شيئا لم تسمعه. نزع يشماغه، وهمس بارتجافة:

صبحك الله بالخير يا نعناعة. لم تعرفه من قبل. ولم تره في السلف ذات مرة، تماسكت وهي تقول، أنا لست نعناعة يا غريب، كان غاطساً في الماء الى فوق بطنه، يتحرك حوله القش وجئذاذات صغيرة من الجولان وكان في وجهه الاسمر معنى.

ربما لم تتمكن من إدراكه هذه اللحظة بالذات، وفي السكون الذي بينهما، سمعت خبطة بعيدة في الماء وثمة من يحر اعواد الدغل، قال الرجل وهو يفترس بوجهها الصغير الموشوم، انا لا اعرف في السلف احدا وجئت اصبحك بالخير يا نعناعة، رأت في عينيه لمعة تعب، قال لها:
منذ البارحة وانا اخوض في الهور، ارهفت سمعها لخبطة ثالثة بعيدة، وظلت تتبع، مسار الدغل الذي بدا واضحا ان هناك من يمر من خلاله، ارتعشت وهي تتبع مسارين مختلفين، كانت اشبه بسقوط رجلين، تعاقبا، ثم افترقا الى جهتين مختلفتين.
قال الرجل كما تصورت: هل تدعوني الى السلف، أم ادعوك انا الى الهور. دقت في قلبها حشرجة مكتومة واحست بما يشيه الانهيار وهي تمعن في هذا الوجه الطالع لها من بطن الماء كجني، وكانت عيناه تلحسان وجهها الموشوم وهو يرى نوم الصباح في خديها المتوردتين، تراخت واحتبست في صدرها صرخة مرة. لم تستطع مقاومة الجني الغاطس الى بطنه امامها جلست على صدر طرادتها باستسلام وهي تنصت لاتجاهين قادمين اليها برجلين آخرين.
قال لها الجني: لاتخافي هما معي..
طلع عليها الرجلان المثمان من اتجاهين صبّحاها بالخير، وقال لها الجني:
تعالي يا حلوة. مد يديه اليها وكان يقترب. جمدت في صدر طرادتها ولم تشعر باليدين القويتين اللتين حملتاها، اغمضت عينيها والرجل الجني يحملها كسمكة، لم تستطع ان تحلم هذه المرة، وفي مطلع الضحى كانت المشاحيف الثلاثة تعود

كما في نهار بعيد الى مكان ما في الهور. والسمكة مغطاة بشرشف ابيض مبقع بازهار حمر.

لص قريتنا

هكذا هو «زيارة» لص محترف اورث القرية مشاكل لا عدّ لها. واهان نفسه كثيراً بهذه الافعال الشائنة. فهو لص الجواميس، يغيب اياما وليالي في ادغال الهور يطارد القطعان التي ترعى هناك، يسرقها مهما كان عددها، بإمكانه قيادة قطيع من مائة جاموسة.

ثم يبيعها في قرى المعدان البعيدة ويعود وجيوبه مليئة بقطع الذهب والفضة. ويا ما طورد في تلك الاماكن المنعزلة. ويا ما سبب لرجال قريتنا مشاكل كثيرة مع العشائر الاخرى، لكنه كان لصا حاذقا يعرف المسالك التي تقوده الى ما يريد ويواجه الاخطار بشجاعة نشهدها له ويشهدها المعدان وهم يطاردونه في الممرات المائية ويحرقون حوله القصب برصاصهم الغزير، لكنه كان يفلت كما في كل مرة إلا من جروح لا يأبه لها، بل يكتفي بكيها بجمرة من جمر الكانون... وكثيراً من المرات كان يعود الى قريتنا خائضا المياه العميقة والضحلة لعدة ايام، يأتي حافيا، معفرا بالطين والقش وجذاذات النباتات، مبللا مثل جرو في برد قارس، يأتي في كثير من الاحيان مصابا برصاصة في كتفه او ظهره او يده،

وربما اكثر من رصاصة قد استقرت في جسده، لكنه يعود وكأن على جسده لسع بعوض!
ونقلا عن زوجته (المنهوبة) تقول نساء قريتنا، إن ظهره اصبح مثل المنخل لكثرة الثقوب وان الرصاص الباقي في جسده زنته نصف كيلوغرام حيث لم يبق موضع في جلده إلا ونخرته طلقة او حفنة طلقات صغيرة من بنادق الصيد!
وتقول زوجته ايضا اصبحت له رائحة تشبه رائحة البارود، وهذا الرجل لا يريد ان يترك هذه الافعال الضارة. لقد كبر وهو يمارس احترافه لسرقة الجواميس، فيغيب اياما وليالي يبحث عن فرائسه في تلك المتاهات المكتظة بالبردي والقصب والجولان، ومن ثم يبيعها في القرى البعيدة واحيانا لا يعود الى قريتنا لمجرد انه يعثر في طريق عودته على قطيع جواميس!
وما من احد كان قادراً على ان يمنعه من مسلك الحرام هذا. لقد شب وشاخ عليه. وامتلأت صريفته بالذهب والفضة. وما ندري ماذا سيفعل بكل هذه الثروة! وما ندري متى سيستريح ويعيش بقية ايامه بيننا، مع اسرته، فيشتري ارضا وحقلا، والخير وفير ما شاء الله، اقترح بعضنا عليه ان يتزوج فيجدد شبابه، لكنه كان في عالم غريب، وحده يعرفه، ويركن الى مخاطره، ويأنس الى حياة المطاردة والمغامرة، اما نحن اهل القرية، فيقول عنا، ابقوا هنا كالحريم.
كلوا البردي والحنطة وتناسلوا مثل الارانب... لا عليكم بي... انا والجواميس ما راح من العمر وما يبقى... هكذا هو عندما يرجع من مطاردة ويعود من اخرى فيغيب اياما وليالي، في بدر مثلج، او صيف حار. لا يبقى إلا يومين أو ثلاثة فتضيق به

الصريفة. وتضيق به القرية فيهرب الى الهور البعيد يمارس عادته القبيحة هذه، وقد يعود بعد خمسة ايام او ستة او ربما اكثر مزوداً بطلقة مضافة او طلقتين. وعندما ينسنا من اقناعه على مدى السنوات الماضية، تركناه وواجهنا مشاكله بعقول رشيدة مع العشائر الاخرى، ولولا حكمة رجال قريتنا لقطفت بسببه رؤوس وسالت دماء كثيرة، وفي واحدة من غيباته المتكررة ما عاد، قالت زوجته أنه تأخر، وما كان غيابه ذا شأن بالنسبة الينا، قالت حلمت البارحة حلما مزعجا، حلمت انه يواجه عاصفة في الهور وكان وحده، وكان يستغيث...
ولا ندري ان كانت الاحلام تصدق او لا تصدق... تركنا زوجته في قلقها. وانصرفنا الى شؤوننا، وبمرور اكثر من سبعة ايام اخرى ما عاد فعلا، وما من عادته ان يتغيب هكذا، وما ناد ننساه حتى نذكرنا زوجته به، كانت تعيب علينا هذه اللامبالاة، وتقول انه ضلع من ضلوع القرية، وهو واحد منكم وابن العشيرة على اخطائه.
كانت تحشم فينا الغيرة والشهامة وكانت الايام تنطوي ثقيلة، وتحول نسيانه الى حديث نتحدث به كل ساعة، ما الذي حل بالرجل! ربما قتلوه! ما من عادته ان يغيب هذا.
لا ندري لاي اتجاه راح. ماذا قال يا امرأة! سنبحث عنه. انه حبل من حبالنا مهما يكن... فهو واحد منا. لن يروح هكذا بسهولة... وبين حقيقة غيابه التي صدقناها. وبين تداخل الايام، نهضت فينا غريزة الدفاع عنه، اجل، هو واحد من هذه العشيرة ولو كان لصا، عار علينا ان نتركه في هذا الضياع، سنثأر له ولو سالت دماء بمثل مياه الهور!
صار الرجل قضيتنا وتشاورنا بالامر، وكان شيوخنا يقولون

اقوالا تعني فيما تعنيه انه رجل ولا كل الرجال. وتذكروا شيئاً من موقفه، خاصة بعد (عركتنا) مع سلف من المعدان، حيث كان رجلا حقا.

ولو لم يكن سبعاً لما خاض غمار هذه المخاطر في الليالي المثلجة وهو يقود قطعاناً من الجواميس دون خوف،ويكفيه ان جسده مخرم بالرصاص... أي رجل هو!...

وهكذا صارت الايام التي مرت والتي ستمر يقينا من انه لن يعود، لعله غرق، ولعله قتل. وما من شيء هذا، فقررنا ان نحزم امرنا ونركب مشاحيفنا في البحث عنه، نتوزع مجموعات مجموعات الى اماكن بعيدة قد يقصدها، وكان علينا ان نمضي غدا، من الصبح الباكر مثلما اتفق جميع الرجال... وزغردت النساء في كل صريفة، انه واحد منا.

رجل شهم من العشيرة، الثأر... لكن ما كل ما نشتهي يصير... ففي عصر هذا اليوم، قبل الصباح الذي سنذهب فيه بحثا عنه، في هذا العصر ثمة من صاح ان جثة طافية على الماء لرجل مجهول جلبتها مياه الاهوار جثة رجل من المعدان كان مصابا بعدة طلقات في ظهره، ولم يكن من الصعب علينا جميعا ان نعرف ان هذه الجثة هي جثته ولو انها مشوهة، انتشلناها من المياه، انتشلناه وهو منتفخ البطن ومشوه الخلقة...

فحصنا جسده، فهالنا ان نرى ثقوب ظهره الكثيرة، وكتفيه وبطنه، اي رجل هذا الذي يحمل كل هذه الآلام.

اختلط علينا الامر... إذ لا ندري ايها الاصابة الجديدة في جسده، لكن زوجته حلت لنا هذه المعضلة، قالت، انه لن يموت ولو دخلت جسده كل طلقات العالم... وهو قال لي ذلك،

وقال لي، اذا مت، اذا قيل لك اني مت، فاعرفي ان الطلقة في اقلب... في منتصفه... وعندها انتبهنا الى ثقب صغير، يتوسط قلبه، ثقب بحجم رأس الاصبع، بكت قريتنا عليه، لص الجواميس ورجل المخاطر، حتى في موته كان وفيا... فبرغم الايام الطويلة التي قضاها غريقا في الاهوار... إلا انه عاد الى قريتنا جثة وبقلب فيه ثقب بحجم رأس الاصبع.

القسم الثاني

عَرق امرأة

قالت وهي تصفع المخدة الصوف بباطن كفها:
«غسلت دشداشتك و...» اعادت صفع المخدة الخشنة وهي تنظر الى زوجها:
«وعطرتها....»
تطاير غبار ناعم في الصريفة الجديدة، كان من السهل رؤيته يتراقص في شريحة ضوء شاقولية هبطت من شق سقف الصريفة، واستقرت بين المرأة وزوجها على بساط مقلم لما يزل جديدا ونظيفاً.
وضعت مخدة الصوف على عنق الفراش، وتناولت المخدة الثالثة، وهي تقول:
«النهار طويل وحار، واشغلت نفسي بحلب الابقار...»
تحرك الرجل وهو يقول:
«ما زلت عروساً... لا عليك بهذه الاعمال..»
قالت المرأة:
«ومن يحلبها! ضروعها منتفخة!»
عاد الرجل يكوم نفسه فوق البساط المقلم وهو يتمتم:
مشاغل الحقول كثيرة هذه الايام... اصبري ستجديننى بعدها

معك... طبطبت على وجه المخدة ثم وضعتها على الفراش وكانت تحدث زوجها:
«انا وحدي... وانت كل النهار في الحقول..»
اقتربت منه، وخلعت فوطتها اللامعة، استطاع الرجل ان يرى على عنقها الاسمر قطرات من العرق ويرى وجهها محتقناً وعيناها تومضان بغرابة لكنه ظل مكتوماً على البساط المقلم مستسلماً الى اغفاءة عاجلة كان يحتاجها هذه اللحظة بالذات، فما يزال يشعر انه متعب بشكل فظيع، اضطر الى ان يغمض عينيه ويضع ذراعاً على وجهه.
نهضت المرأة متشنجة وتناولت مخدة الصوف واخذت تصفعها بقوة وبشكل جعل الرجل يفتح عينيه من تحت ذراعه ويرى العرق يسيل من عنقها بغزارة.

بطة

هذا ما حدث بالضبط؛ فبعد منتصف ليلة شديدة البرودة شق صمت قريتنا عويل طويل. وعندما خرجنا من افرشتنا الدافئة، فوجئنا بنار عالية تأكل صريفة ما، فتناخينا ونحن نهرع الى الحريق الكبير الذي احال القرية الى كتلة من اللهب والضوء الساطع.

وعلى الفور عرفنا ان الحريق يشب في صريفة»بطة»هذه إمرأة على قدر من الفتنة وهي ارملة المرحوم فياض آل واوي الذي قتل في غزوة من غزوات العشيرة.

ولم تتزوج بعده منذ اربع سنوات. برغم ان الكثيرين من رجال قريتنا توددوا اليها لكنها كانت ترفض الزواج دائماً، وقد ترددت اشاعات مغرضة عنها لكن ما من احد كان قادراً على حسم تلك الاشاعات، وهكذا فهي منذ اربع سنين تعيش في صريفتها وحيدة؛ اما هذه الليلة فهي ليلة مفزعة بحق، كان عويلها يصل الى كل قرى المعدان، ونحن نشيل المياه من النهر والجداول ونسكبه على الحريق الكبير، وتجرأ منا رجال كثيرون ووصلوا الى الخصائص القصبية لكي يلقوها ارضا:

وإلا فالنيران ستفتك بالقرية كلها، وبعد ساعات من النخوة المشتركة بين رجال القرية تمكنا من السيطرة على الحريق ولكن بعد ان أكلت النار صريفة الزاير مزعل مناتي ايضا، أما صريفتها فقد صارت رماداً تماماً.

ولم يبق للفجر إلا وقت قصير ويطر، حيث ظلت في ضيافة الحاج عبد الله آل كاطع الى الصباح، وكانت منهارة ولم تنقطع عن البكاء، وكاد كل شيء يمر بسلام، إذ من المؤكد اننا سنبني صريفة جديدة لها، فهذه الحادثة ليست الاولى في قريتنا، وعلى هذا الاساس تجمع رجال القرية صباحاً امام رماد البيت المحترق لازالته وإلقائه في النهر الجاري، فيما ذهب آخرون الى اعماق الهور لجلب القصب، وكاد كل شيء يمر بسلام، لولا اننا عثرنا على كومة رماد متقرفصة، تردد كثيرون منا لازالتها، فهذه كومة غريبة الشكل وبرائحة مقرفة، ومثل هذا النبأ ينتشر بسهولة بيننا، دققنا النظر الى الرماد المتقرفص فكان من السهل على الجميع ان يعرفوا ان كومة الرماد هذه، هي رجل من قريتنا احترق في صريفتها! استغفرنا الله كثيراً، وفترت حماستنا لبناء صريفة جديدة. وكنا نتعوذ بالله كثيراً.

غدر

في الظهيرة جلب نهرنا الجاري جثة منتفخة، رأيناها جميعا. كان الموج الصغير يدفعها تحت شمس مشعة بقوة. خرجنا نتفقد بعضنا. إذ ان حدثا مفاجئا مثل هذا لا بد ان يحثنا ان نتفقد غياب رجالنا. ولا بد ان يهز دواخلنا بالخوف، فمثل هذه النهايات للبشر هي بلا شك نهايات مفجعة ومحزنة، ومدة طويلة ظلت الجثة طافية وسط النهر، هرعنا اليها بالمشاحيف واحطنا بها من كل جانب، فبدت لرجل ليس كبيراً في السن. كان كل شيء فيه منتفخاً. كان يلبس دشداشة بيضاء، وفي وسطه حزام جلد مرصع بنقاط من الفضة بكل طوله، وكان من السهل لاي منا ان يتصور انه كان يضع على رأسه غترة مرقطة وعقالا مفتولاً.

لم نتعرف عليه، ولا يوجد من يشبهه في كل قرى المعدان. ولا بد ان مياه الاهوار قد دفعته الى قريتنا. ولا بد انه غرق منذ عدة ايام. وإزاء هذا المصير المجهول لرجل مجهول يقوم رجال قريتنا بدور نبيل، فهم ذوو شيمة ومروءة.

قرروا ان ينتشلوه من الماء ويقوموا بدفنه في مقبرة القرية ويضعوا على قبره علامة بارزة لكل سائل قد يسأل.

وفعلا قمنا بانتشال الجثة المنتفخة ووضعناها على الشاطىء الرملي، كانت مجدورة ومتأكلة في اكثر من مكان، قال احد رجالنا ان هذا الرجل من سلف بعيد وهو ذو شأن.
طلب ان نعريه، لانه، مثلما قال الرجل، ذو شأن في سلف لا نعرفه. وانه لم يغرق بمثل هذه السهولة، وفعلا مزقنا دشداشته البيضاء، بعد ان حللنا الحزام المرصع بالفضة، فكان منظره بشعا ومقززا، قلبناه على بطنه، ففوجئنا بثقوب وردية تنخر ظهره العريض، عند ذاك قال رجل قريتنا... ارأيتم! ان مثل هؤلاء الرجال لا يغرقون بسهولة.....
لقد غدروه.

حليب للذئب

مسكينة»علاهن»لقد اكل الذئب ابنها، وستموت قهراً وحزنا، ولا ندري، نحن اهل القرية، ماذا نفعل. هرعنا على صراخ موجوع، ومن ثم انهمرت طلقات وهي تضرب الليل الدامس، وفي مثل هذه المباغتات نحسب الف حساب لكل طارىء يطرأ على قريتنا ليلا او نهاراً، وحين وصلنا الى صريفة علاهن وجدناها شبه ميتة وهي تحتضن فراشا صغيرا بلا طفل، فرثينا لحالها، وهرعنا في الظلام، نصوب على المجهول، بعد ان فهمنا ان ذئبا جائعا انشب انيابه في عنق طفلها الوحيد واخذه الى الحقول البعيدة....

مسكينة علاهن، هذا هو ولدها الاول بعد اربع بنات، وشاء الحظ ان يأكله ذئب جائع وهو في شهره الاول، وطيلة الليل ونحن نركض وراء الظلام، وكلاب القرية تسبقنا بمسافات طويلة، فنخوض وراءها وتطلع الى البر وهي تنبح نباحاً مغدوراً، فنطلع وراءها ونحن نرمي الظلام برصاص كثيف. ولكن الذئب هرب وبين انيابه ابن علاهن الوحيد الذي انتظرته بعد اربع بنات، هذا هو القدر، والذئب جائع مثلنا في هذا الجفاف الموسمي، اما نحن فقد ركضنا وراء الظلام حتى

الفجر وقتلننا اشباحاً كثيرة، ونخلا واشجارا واوهاما حتى نفذ رصاص البنادق...
عدنا خائبين الى علاهن تسبقنا كلاب القرية وهي تهز بخنوع وتلوي اذنابها بين قوائمها... كنا جائعين جميعا، نحن والذئب وكلاب القرية، وكانت علاهن تلطم صدرها وتعول بفجيعة: ان وليدها كان جائعا حين اختطفه الذئب... لو انني ارضعته! وكانت تخرج ثديها المنتفخ وتعصر حليبه الدسم في وجوهنا، فيتطاير رذاذ شهيا.. مسكينة علاهن...

عرس رابع

على سنة الله ورسوله. تزوج (الحاج مفتن آل مناع) مرة رابعة من (فرعة صكبان آل جباشه) أرملة المرحوم (عبد الواحد شاتي) الذي قتل في غزوة غادرة قامت بها إحدى عشائر المعدان قبل سنتين بسبب ثأر قديم... وكان عرس الحاج كبيراً.

احتفلت به قريتنا ليلة كاملة. اطلقنا الرصاص حتى احمرّت سبطانات بنادقنا وتعطل الكثير منها. وعريسنا رجل موسر ونو هيبة وهو صاحب حظ في الدنيا، امتدت به يد الرزق حتى ملأت كل سنواته الستين فمد يده الى الناس وكان كريماً معطاءً حاضراً في مشاكلنا الكبيرة والصغيرة، ويد الرزق امتدت الى صلبه فمنحته ذرية كبيرة من الاولاد من زوجاته الثلاث، وهو الرجل الوحيد في قريتنا الذي له سبعة عشر ولداً بالتمام والكمال!

فزوجته الكبيرة (كطعة محيبس آل زامل) ولدت له ثمانية رجال اكبرهم (غازي) ومن بعده علي وجعفر وحسن وشرهان وحيدر وتراب وفاضل، وزوجته الثانية (غبشة لابد آل فرطوس) ولدت له خمسة ذكور اكبرهم»فالح»ومن بعده:

عبد الرضا وعبد النبي وقاسم ومحمد، فيما ولدت زوجته الثالثة (هلالة عنفيس موزان) اربعة ذكور اكبرهم»عبد الله»ومن بعده: هادي وعدنان وزيارة... وها هو الحاج، وبعد هذه الذرية، يتزوج رابعة، فقد يضيف الى اولاده اولاداً آخرين من ارملة عبد الواحد ذات الحسن الشهي، على ان شجرة العائلة لم تتوقف عند هذا العدد من الذرية، بل اضيف سبعة اولاد آخرين من ابنائه الكبار، فولده غازي اكبر الرؤوس انجبت له زوجته (نظيمة موحان) ولدين هما: عبد الزهرة وعبد الكاظم.

وولده فالح بن غبشة الفرطوس انجبت له زوجته (حسنة زاير فالح) ولدين ايضا هما: عبد الكريم وعبد الرحيم، اما عبد الله، ولده، من هلاله، فقد فتحها الله في وجهه، حيث صار اباً لثلاثة اولاد من زوجته (بطة شلغم آل عرس) اسماءهم: ياسر ومالح ولطيف. وبهذا يكون الحاج مفتن آل مناع مسؤولاً عن شجرة عائلية قوامها اربعة وعشرون رجلاً واربع نساء!!

ومن له هذه الذرية لا شك انه محظوظ ويكون ذا شأن في قريتنا، ومن حقه ان يتباهى لهذا الحشد من الرجال، فهم حزام ظهره في الشدائد والمشاكل، وبعضهم يسند البعض في المحن، والحاج مفتن كان حاطاً باولاده في عرسه الرابع، وبدا لنا اكثر شبابا وفتوة في دشداشته البيضاء التي توالت على غسلها وعصرها وتعطيرها ثلاث نساء بلا شك!.

تنور

قالت بدرية وهي تضع اقراص الخبز على سفة خضراء:
«لم تتحسن صحته. والامر بيد الله».
بدت المرأة الاخرى قلقة وهي تقول:
«خل يشوفه السيد»
قالت بدرية وهي تسحب رأسها من التنور:
«قال السيد ان الاعمار بيد الله»
تساءلت المرأة الاخرى:
«أما زالت الحمّى مرتفعة؟»
ردت بدرية وهي تضع رغيفا من العجي في خاصرة التنور.
«مثل هذا التنور! يقولون أنها شمرة»
اقترحت المرأة عليها:
«بخري على رأسه الحرمل، وذوبي الرصاص»
قالت بدرية:
«بخرت الحرمل. واحرقت حبة الحلوة... وذوبت الرصاص.. ولا فائدة»
تساءلت المرأة:
«وما شكل الرصاص!»

وضعت بدرية رغيفا ساخناً على السعفة الخضراء وهي تقول:
«لا شكل له... السيد يقول عفاريت أو شياطين في رأس الولد...»
استسلمت المرأة وهي تقول:
«الحمد لله»
قالت بدرية ووجهها محمر امام التنور:
«هذه قسمتي»
من جديد تساءلت المرأة:
«وماذا ستفعلين؟»
ردت بدرية وهي تمد يدها الى التنور الساخن:
«ابوه يقول نرسله الى سيد نور وراء (البركة) وهذا سكلفنا ستة ايام بكاملها»
حثتها المرأة قائلة:
«لا تتأخري يا بدرية. فالولد تسكنه العفاريت.... حرام ان تتركيه؟.»
قالت بدرية بتسليم:
«الله كريم»
اخرجت بدرية آخر اقراص الخبز من بطن التنور ورمتها على السعفة الخضراء، بدت معروقة ووجهها ينضح عرقا وكانت المرأة تلف جسدها بعباءتها وتترك المكان.
فيما حملت بدرية سطلا من الماء قريبا منها واخذت ترش التنور الساخن وسمعت هفوت الجمر فيه ودوبان السخونة.
حتى اطفأته تماما، ثم حملت الخبز.

فيضان

بعد الفيضان الكبير الذي اغرق قريتنا نحصي خسائرنا الكثيرة، إذ ليس لدينا ما ننشغل به عقب تلك المصيبة التي اغرقت مزروعاتنا وصرائفنا وبعضا من رجالنا ونسائنا واطفالنا.

وكان عزاؤنا ان نصبر ونشكر الله على بلواه، فالمهم سلامة من بقي في القرية. وما ينقرض من نسل ما دام هناك رجال ونساء ورغبات. وما خسرناه نعوضه في في قادمات الايام، بهمة رجالنا ونسائنا. وارضنا خصبة تدر خيراً وفيراً وزادا يملأ البطون.

لم يكن امامنا غير ان نتذكر تلك الليلة الفاتكة، لقد كنا على يقين ان الفيضان سيحل بنا. فمناسيب المياه آخذة بالعلو منذ ايام، بل غرقت بعض الصرائف القصية تلك الصرائف المنحدرة على عتبة السلف.

واختنقت المروز لصعود المياه اليها. وما كان احد بمقدوره ان يدرأ هذا الخطر الذي لا نقدر عليه. إلا أننا حششنا قصباً كثيراً. وعلينا دكات الصرائف وحملنا طينا كثيراً، احطنا به بيوتنا القصبية تحسبا لصعود المياه ليلا....

لكن ما كان قد كان في تلك الليلة السوداء التي حسبناها ستطول دهراً ثقيلاً. وكان فيضانا بريح هائجة اسقطت نخلاً كثيراً وقلعت اكواخاً وصرائف. وجرفت الى المياه نساء عجائز ورجالاً كانوا يحملون وابقاراً وجواميس واغناما وكلابا، وكان صراخ القرية تبتلعه الريح الهائجة، والامواج تتسابق لصعود بيوتنا النحيفة حتى قلنا ان من ينجو من هذه المصيبة، سيكتب له عمر جديد، ولن يموت بعد الآن! ولقد كان ما كان.

طلع الصباح على مستنقع كبير من المياه، غرقنا، جميعا. وتشبثنا بالنخل العالي ونحن نتوب الى الله ونستغفره ونستجدي عطفه ورحمته تعالى، لكن ما كان قد كان، تفقدنا بعضنا واشياءنا فحزنا كثيراً. ولم يكن امامنا سوى الصبر على هذه المحنة. والعيش الكفاف قدر ما نستطيع، وما علينا إلا ان ننتظر انحسار المياه عن بعض الاكتاف الترابية والمزارع المرتفعة عن الشط ي نعيد تألفنا مع الاشياء ونعود قرية صغيرة بما تبقى منا، فالنسل لا ينقطع.

طلقة واحدة

حينما عاد عناد آل سوادي الى آل درويش من غياب قصير، لم تشأ زوجته نعناعة بنت مجبل آل صاحب، ان تسأله عن غيابه، فهي تعرفه ذا مزاج عكر وسلوكية تفقده اتزانه في كثير من الاحيان، وكثيراً ما كان يغيب اياما وليالي ثم يعود بعدها، وكأنه لم يترك السلف إلا منذ دقائق.

هذه المرة قررت زوجته ان تسأله عن غيابه، إذ ان الامر متعلق بها ايضا وباهله وتعرف ان رجالاً كثيرين خرجوا معه، وعادوا جميعهم هذا اليوم، خرجوا لغزو آل صاحب أهلها، لثأر قديم، ولمشاكل لا تريد ان تنتهي.

علق عناد آل درويش بندقيته الموزر في خشبة ناتئة والقى بجسده على بساط مخطط دون ان ينزع من بطنه حزام الرصاص، بدا تعبا بعد رحلة الغزو هذه وكاد يغط في نومه إلا ان ابنة آل صاحب قالت له بلهجة غامضة:

«وين كنتم يا عناد؟»

فتح الرجل عينيه وشزرها باستنكار كانت واقفة وعيناها تقولان اشياء كثيرة إلا ان التعب الذي كان يحل في جسده جعله يسكت، فعاد مديرا ظهره اليها فسمعها تقول:

«من قتلتم يا عناد؟»

قال لها ببرود ولم يدر وجهه اليها:
«ابوك واخوتك احياء يا بنت آل صاحب لم نظفر بهم... اذهبي الآن..»
قالت نعناعة بلهجة حازمة:
«ومن قتلتهم يا ابن سوادي؟!»
صاح بها ووجهه في الجهة الاخرى:
«اثنين..قتلنا اثنين فتساوينا يا وجه الشؤم... والله سوف نفني آل صاحب ولا نبقي لهم ذرية، اتركيني انام يا سليلة النسل!»
صاحت به المرأة:
«ايها الأنجاس يا آل درويش غدرتم اهلي!»
تناولت الموزر المعلقة في الخشبة الناتئة وصوبتها الى الجسد الممد.. وقالت:
«عليك ان تعرف يا ابن سوادي، ان دمك حلال.»
استدار عناد وهو مأخوذ بهذه اللحظة المفاجئة، اللحظة التي استطاع فيها ان يدرك ان اموراً كثيرة كانت تجري على اخطاء متراكمة فتتهشم مصائر بشر مغدورين. فحاول ان يطمئن المرأة وهي تصوّب اليه الموزر، إلا انه كان يسمعها تقول:
«حان وقت موتك يا عناد. واعرف ان نساء آل صاحب يأخذن بثأر اهلهن.. ساقتلك ومعك آخر، ساختاره بعدك.»
تراخى جسده، في هذه الثواني العسيرة، ولم يستطع ان يفكر بشيء واضح وكانت الطلقة التي هشمت رأسه كافية لان تحسم اشياء مدمرة عاشتها نعناعة منذ عشر سنوات... كانت طلقة واحدة من الموزر تكفي لان تنطفىء ديونا كثيرة بذمة آل درويش كلهم.

طفل الماء

ما كانت «حليمة» تتوقع ان يحاصرها الطلق في ليل الهور البارد، إذ ان اسبوعا آخر يكفي لاكتمال حساب شهورها التسعة، غير ان ما كان قد كان. حاصرتها الآلام في المشحوف وهي في رحلة الصيد مع اهل القرية. كابدت في الظلام البارد واوصالها ترتعش. وجاهدت ان تؤخر ولادتها.
لكن ما بيدها شيء ولم يطل مخاضها إلا ساعة ثقيلة عانت فيها ما عانت، حتى ولدت ولداً في المشحوف! وبالطبع لم تتوقف رحلتنا الموسمية ونحن نندفع الى الاعماق المظلمة الشديدة البرودة.
ولم يكن «سالم باني البو جربوع». زوجها ذو الشاربين البزونتين ليهتم كثيراً بآلام زوجته وهي تئن وتتلوى وتكب صراخاً بين كتفيَ القارب، إلا انه اطفأ اللوكس المثبت في عنق المشحوف ومثله فعلت المشاحيف القريبة، لكي يتوفر ظلام ساتر لعري حليمة في تلك اللحظات الحرجة، وشاءت الاقدار ان تلد بسلام. وسمعنا صرخة الوليد الجديد، لقد كانت كافية لان تعيد الهدوء الى قافلتنا ونمضي نخترق الليل والبرد والماء وقد اضيف الى رحلتنا وليد جديد شاء له القدر ان يولد في مشحوف وان يشم اولاً رائحة الماء والبردي في ليل بارد جداً. في رحلة صيد صعبة جداً.

لغو

قال لها: إن لم تمطر السماء غدا او بعد غد او حتى بعد اسبوع فان المروز طافحة بالمياه، والمحصول سيكون وفيرا إذا اراد الله، قال لها انه متعب جداً، وان الفطريات تكاثرت في جسمه، كشف لها عن ظهر مجعد اشبه بجلد ماعز، فحكت له المرأة بقعة يابسة من الحصف والدمامل الميتة.
قال ان مفاصله تؤذيه، سألها، هل تبكين كثيراً إذا متُ!! ثم قال انه مر بمضيف الزاير عبد الرضا قبل ان يأتي الى هنا وجلس قليلاً، والزاير تعبان جدا يا امرأة، هو رجل طيب ولا يستاهل كل هذا، وقال لها غدا سيبكر الى الحقل، فالشتلات تحتاج الى رعاية والى ماء والى مراقبة، وتذكر ان حقل صيهود داسته الخنازير ليلة البارحة وخربت نصفه، وانه قد يضطر الى ان يحرس حقله بنفسه ليلا، فهذه الحيوانات غبية وشريرة، فقد يضيع تعب الموسم، وقال انه لا يحتاج إلا الى رعاية الله سبحانه وتعالى، وقال ايضا علي قد أكمل بناء صريفته الجديدة وان زوجة مفتن لم تلد كما كان متوقعاً، وكما اخبرته هي، عاتبها كثيرا، وكان يغمض عينيه وينام فاتحا فمه وهو جالس.

وفيات

مات الزاير كاطع اخيراً فتأجل عرس علاوي ثالثة. شيعنا الزاير في المقبرة في»عراضة»كبيرة استمرت ساعات طويلة. حتى تم دفنه في مقبرة القرية. وأقيم مجلس الفاتحة في مضيفه الكبير. وعريسنا علاوي لا يبدو سعيدا امام هذه المصادفات.

امام ثلاث وفيات متتالية ارغمته على تأجيل عرسه من «حسنة ابنة مظلوم الغافل» فالواجب يقتضي ان يفعل ذلك. والزاير كاطع رجل ولا كل الرجال، وقبله مات «عنيزان آل موزه» قبله بثلاث شهور، وقبله مات صبي من القرية عندما لدغته حيّة وهو يسبح في الشط.

وامام هذه الميتات المتتالية خفتت حماسته للعرس. واشار عليه اهله ألا يتزوج. فألبنت مشؤومة كما قيل له وستميت الآخرين بلا رحمة. وامام هذه الاقاويل كان علاوي يتذكر لهفته لها وهي تخرج بالمشحوف الى المزرعة، وكان يغني لها.

ولم يوافق ابوها على الزواج إلا بشروط لكنه امام هذه الاقدار اخذ يكتئب، واقوال اهله تثير به مشاعر كثيرة ليست بصالح زواجه، وعندما انتهى مجلس الفاتحة على روح المرحوم الزاير كاطع، ذهب علاوي بنفسه الى مظلوم الغافل، وطلب طلاقه من حسنة!.

إصبع

عند المساء عاد عبد النبي الى بيته مسرعاً وهو يلف ساقه بغترته المرقطة. لم يكن قد خرج إلا قبل قليل ليقضي الليل في مضيف شيخنا الورع، لكنه عاد ملدوغا، سحق حيّة سامة وعضته في واحد من اصابع قدمه اليسرى، دخل البيت ونادى امرأته.

جلس مسرعاً ومد قدمه الملدوغة، صاح بالمرأة، هاتي المنجل يا سعدية، واشعلي الموقد، جلبت المنجل المعقوف واشعلت الموقد باقراص الروث، كان وجهه محتقناً إلا انه متمالك لهدوئه، قال انه سحق افعى فالتفت على اصبعه الوسطى ولدغته، إلا انه قتلها على الفور، ثم ربط ساقه بغترته المرقطة وعاد، تعالت نيران الموقد وأدخل المنجل في جمر اللهب المتراقص حتى قبضته الخشبية، قالت سعدية انها تخاف عليه، فطمأنها وهو يقلب المنجل المسنن، وقال انه يشعر بخدر لذيذ ليس إلا...

وبعد وقت احمر نصل المنجل، اخرجه وتأكد من إحمائه، قال لسعدية، انه سيبتر اصبعه الوسطى، فزعت المرأة، إلا انها تمالكت اعصابها، مد الرجل ساقه ثم انحنى عليها وبيده المنجل أفرد اصابعه، مسك الاصبع الملدوغ وقرّب المنجل، وحزّهُ بصمت، فسقطت الاصبع على القش تتلوى مثل كائن صغير.

بكاء

دخلت جارتها مرتعشة، و صبرية لم تزل تبكي، تنعى كما لو كانت في جنازة... الجارة الحميمة لم تر في الصريفة ما يجعلها تبكي، زفرت بفوطتها زفرة طويلة وكفكفت دموعها بفوطتها ودعت جارتها الى الجلوس، الجارة الحميمة لم تفهم ماذا يعني هذا، المرأة قالت، اجلسي، لا شيء، مجرد (عبرَة) حاصرتني، الجارة الحميمة، قالت، لا يا صبرية، بكاؤك غريب، زوجك واولادك معك وبناتك امامك، قولي، ما بك؟ وكانت صبرية تمسح آخر بلل في وجهها وتتمخط وهي تهوّن جارتها الحميمة وتقول لا شيء... لا شيء... ثم صفنت وعيناها ثابتتان على اشياء قديمة في الصريفة، فلاحظت جارتها الحميمة ان عيني..... ستبكيان من جديد..... وبإفراط.

حيّة

حيّة السيد حمد طويلة وسوداء مثل عصا مصقولة. تخيف الاطفال والقطط والكلاب والكثير من الضيوف... السيد احمد، مفتي قريتنا وسيدنا ذو الكرامات مزهو بحيته، فهي في حضنه دائماً وفي المضيف ابدا، لا تنزل الى الشط إلا بمشورة من سيدنا ولحاجة في نفسه، تغيب احيانا عنه يوما او يومين على الاكثر، نراه فيها شديد الكآبة والوجوم، لا يتحدث كثيراً ولا يرغب باستقبال الضيوف والمرضى إلا من كانت حالته تستوجب ذلك، ولكن حين تعود الحيّة السوداء الطويلة كعصا تتغير اساريره ويبدو كما لم عاد شيء ثمين اليه.

ويعود خوفنا من الدخول الى المضيف بسبب الحيّة التي لا تعرف غير السيد احمد فهو وليها وصاحبها وسيدها، وعندما اختفت الحيّة الى الابد، لسبب لا ندريه، تدهورت صحة السيد احمد اخيراً، وعندما دفناه في المقبرة وجدنا حيته الطويلة كعصا، ارتعبنا جميعا، لكن قيل ان السيد احمد تململ قليلا في تابوته، وخف حمله الى حد واضح.... ومنذ ذلك اليوم والحيّة ما تزال تحرس قبره ليل نهار.

حريق

في وضح النهار احترق بيت»جربوع مناتي»وبذلنا جهودا كبيرة لغرض السيطرة على النار الملتهبة، لكن جهودنا ذهبت عبثا، تحول بيته الى رماد، ونجت اسرته وحيواناته من الحريق خسر البيت وبضع نخلات وصلت اليها النار فشخصت مثل اعمدة سوداء.

أزحنا رماد البيت واثاثه الذي تحول الى كومة فحم، ولم يكن جربوع مناتي جزعا. فهذا ما يحدث دائماً في قرانا بسبب الاهمال. كانت زوجته تبكي وتنعى الحظ الاسود وكانت معها بعض النسوة يواسينها ويبكين على موتى قدامى. لكن مر كل شيء بسلام، وقبل غروب الشمس رأينا جربوع واسرته يجلسون على الارض التي كان عليها البيت وهم يتحدثون عن اشياء لا علاقة لها بالحرق. كانت حولهم الجواميس والابقار والدجاج.. وكانوا يتهيأون للعشاء.

عزلة

مقبرة القرية تبعد عنا شطا وبستاناً، وتقع في ارض متروكة، ينمو فيها العاقول والحلفاء والخبّاز. كتب على قريتنا ان تعيش عزلة فذة الفناها جيلاً بعد جيل. ننمو ونتناسل ونموت فيها بصمت. ثم ندفن بصمت ايضا في تلك المقبرة التي تبعد عنا شطاً وبستاناً في ارض ينمو فيها العاقول والحلفاء والخبّاز. وقريتنا تشعرنا بالعزلة حقاً، وقريتنا باقية مثلما هي، قرية صغيرة منسية، تنمو فيها اجيال وتموت، والمقبرة تتسع دائما.

بنات

ولدت»نعناعة»إبنتها الرابعة فاغتمّ شلال واعلنها صراحة، وبعد شهر واحد فقط تزوج»نظيمة بنت عبد النبي»وقضى معها ليالي لذيذة. وكانت السماء تمطر في تلك الليالي الشهية، وعندما حبلت نظيمة قال لها شلال بصراحة، أنه لا يريد بنتاً خامسة، وإلا فإنه يظل يتزوج الى نهاية عمره، ولو بلغ عدد زوجاته الفا او الفين او حتى عشرة آلاف زوجة!
قال لها شلال انه لا يريد بنتاً خامسة، أما نظيمة بنت عبد النبي فإن بطنها تنمو وتتحدّب مع كل شهر.

الماء

يومياً وحدها، تجوب الماء والنباتات الملتحمة وقتاً طويلاً، منذ عشرين عاماً وهي وحدها في الماء الجاري. ليس ثمة غير لبط الاسماك والاصوات الخافتة الغامضة في عمق الهور.

يومياً وحدها في عزلة البردي الطويل والقصب الرائق بنضجه. تملأ مشحوفها المخروطي وتعود بلا ذاكرة، سوى ذاكرة الماء الجاري... احياناً تحلم فتخاف. وحين يمر طائر في السماء.. تناديه، تصيح عليه... تعال... أنا وحدي ايها الطائر الغريب... احياناً تحلم انها ليست وحدها فتقشعر. والماء يجري بين فخذيها قارصاً ملذاً والاسماك الملساء تلبط حولها في رحلة يومية لا تنتهي، ولا شيء غير ذلك..

حفاة

الصيادون الحفاة يخرجون بعد منتصف الليل مهتدين بالنجوم وسراجاتهم تضيء ممرات الاهوار الضيقة، فالرزق حلال في الادغال المعتمة، والرياح الموسمية تشيل الزوارق الصغيرة وتحط بها على موج صلب وقصب مدبب والقاع يبتلع الادغال الكثيفة ويفتتها، لكن الصيادين الحفاة ماضون في رحلة الصيد وإذ يغرقون فإن قواربهم الصغيرة ستعود محملة بعطايا الادغال، وعند ذاك سيركبها صيادون آخرون... حفاة ايضا.

قش

كلاب القرية التسعة هاجمت الرجل الغريب ومزقته، والرجل الغريب كان يحمل بيده صرة. لم يستطع ان يتفادى هجوم الكلاب المسعورة فاستغاث بكل صوته حتى تشققت حنجرته وتلاشى صياحه بين النباح المتوحش...
القرويون المزارعون لم يستطيعوا انقاذ الرجل الغريب. هرعوا بمعاولهم وفؤوسهم ومناجلهم لكن الكلاب كانت تطرح الرجل الغريب على قش اخضر وتقطع اوصاله بعناد.... القرويون المزارعون شاهدوا كلاب القرية التسعة تتفرق والرجل الغريب يتوزع بين انيابها، لقد تحول الرجل الغريب الى لا شيء. صرته فقط بقيت متروكة على القش الاخضر الملطخ بالدم.

ثأر

القرويون الملثمون باليشاميغ المرقطة تقاطروا من كتف مزرعة خلف القرية، مثقلين ببنادق ام العباية وبنادق الصيد، ثم استووا على خط افقي امام المزرعة متسترين باشجار الغرب والصفصاف.... القرويون الملثمون باليشاميغ ملؤوا المزرعة. اكتظت بهم الاشجار والزرع النامية، وهم يشهرون بنادقهم ذوات السبطانات الطويلة الى الريح القادمة من القرية، رأتهم الكلاب اول الامر. نبحت حتى تعبت فلوت ذيولها بين سيقانها وهربت.

القرويون الملثمون (يغزون) هذه القرية الخضراء بانتظار رجل واحد فقط سيأتي بعد قليل مع ولديه الصغيرين وكلبه وشياهه السبع وحماره الاعزب، سيأتي الرجل لكي يقتلوه، فمن اجل ان تمضي اطلاقة واحدة في صدره حشدوا كل هذه البنادق المهرَبة وصوبوها في الدرب الذي سيمر به، عندها ستقتله اطلاقة واحدة فقط ويموت ذلك الرجل غدرا.... سيرتبك ولداه ويصرخان فزعين.... ستتفرق شياهه السبع، تمعمع خائفة... سيظل حماره الاعزب ماشيا دون اكتراث... سينبح كلبه بفجيعة وهو يدور حول جثته ويشم مستنقع الدم الدافق... اما القرويون الملثمون باليشاميغ المرقطة فإنهم سينسحبون عبر كتف المزرعة مزهوين بالثأر.

عباءة

الرجل الشائب ذو العباءة القديمة التي لم يضع على كتفيه غيرها، ذاك الرجل كان صامتاً وهو ينزوي في المضيف. لم ينطق بشيء حتى الان. فيما كان الرجال يختلفون حول شؤون العشيرة منذ المساء.... ولم يكن امامهم سوى هذه الليلة الباردة، الطاعنة في البرودة. والرجل ذو العباءة القديمة اعتكف صامتا وهو متقرفص.

كان يلف عباءته حول جسده الهزيل كما لو ان شيئا لا يعنيه في هذه الفوضى التي يقودها رجل قوي وآخرون أنداد من افخاذ وحمائل. جاءوا جميعهم هذه الليلة ليحسموا صراعاً قديماً كان يتجدد كلما ألمت بهم غائلة الجوع وشح من سمائهم المطر ويبست ضروع البساتين.

وما من احد كان حاسماً منذ اول المساء وحتى هذه اللحظة التي اقتربت من صلاة الفجر. حتى الرجل القوي الذي فوجيء انه غير قادر ان يكون القوي الوحيد، والرجل ذو العباءة القديمة اوغل في صمته المقدس الى الصباح، إذ لم يتفق احد مع احد بل ولدت عداوات جديدة، انفضوا غاضبين من المضيف مع صياح الديكة، إلا ان الرجل ذو العباءة القديمة، الرجل الشائب الذي كان يتقرفص لاماً جسده بعباءته الى الابد.

سداسية

(1)

عين الغبش

افترق الرجل عن الصلاة قبل قليل، وظل دفق من الكلام المهموس محشوراً بين شفتيه وهو ينهل متناثراً، كأنه لا بد وان يكون كذلك... وخارج (الصريفة) كان الغبش يمتزج ببياض رصاصي غض يولد تحت غلاله صمت لا يخترقها إلا رجل آخر أدركته الرجولة فتهيأ لها ببندقيته (المسلوبة) ذات الخشب المسطح وقاسها على قامته الفرعاء ثم انسل مع الغبش، عبر القصب المشتبك، وفي رأسه فكرة ليست غامضة تماماً لكنها كافية لان تغير فتوته ببضع اطلاقات سريعة وتجعله في تماس مع لحظات الدم التي ستظل شاخصة امامه عمراً طويلاً.

خرج الرجل وهو ينحت قدميه على تراب القرية النائمة، مكتظاً في الكلام الذي يملأ صدره. ناظراً الى بيئة الصباح القادمة، غير قادر على تمييز الانقباض الذي لازمه بعد

الصلاة، فاكثرَ من الهمس المكبوت، طاوياً الانهر الصغيرة التي تشكل احزمة متناوبة في خاصرة القرية، وصولاً الى الحقل العامر بالسواقي والشتلات الناتئة، وما يزال البياض الرمادي عالقاً في فضاء وليد لا بد ان ينبثق عن اشراقة جديدة كما في كل مرة.

يحدث هذا عبر سنوات بعيدة متغيرة الفصول والحقول والارزاق، ولم يكن امامه الان سوى غلالة الغبش والصمت الذي تكسر للحظة خالها وهما لا بد منه، إلا انها تضخمت على نحو يستدعي الانتظار والتريث، فتفجر الصمت عن صدى اقدام حذرة كنما قادها الغبش المختلط لتقف هنا، في فسحة الحقل المشتت بالسواقي، فبرز ظل ما لرجل ما، فتسارع حشد الكلام المهموس الى فم الرجل الذي طرح شيئاً مما كان يحمله، كما لو ان هذا الظل لا يعدو ان يكون سوى ظل قذفه الليل الى هذا الوقت المبكر؛غير ان الرجل استدرك لنفسه وتمهل لحظات بدت غامضة امامه، ودون ان يكوّن له رأياً أما الآخر ذو القامة الفرعاء الذي اخذ يقترب وهو غير قادر على إخفاء قلقه، فيما راح الرجل يباوع الى عينيه المفصحتين عن ذهول بدا مرتسماً تماماً وربما كان مفضوحاً ايضاً.

قال الرجل وكأنما يختبر صوته:

«من انت؟»

رد الظل ما لو يختبر صوته هو الآخر:

«لا تعرفني الآن... ولكن من السهل عليك ان تعرفني»

بدا وكأنه مصمم على ان يقول اكثر من هذا الكلام، فقال الرجل بهدوء:

«أنت في مقام ضيفي»
انتفض الأخر وهو يهوم ببندقيته (المسلوبة):
«ليس لك ان تضيّقني وانا اقصدك بغير هذا»
قال الرجل وشعور بالقلق ينتابه:
«اقصدني الى بيتي لأي امر..»
رد ذو القامة الفرعاء وهو يتعامد مع بندقيته ذات الخشب المسطح:
«لا اريدك ان تغدرني يا عم؟»
بوغت الرجل واخذ يفترس بالوجه المتفجر:
«معاذ الله أيها الشيطان...»
قاطعه وهو يرفع بندقيته قليلاً:
«لقد فعلتَ ذلك من قبل.. لقد فعلتَهُ!»

غامت امام الرجل صورة الغبش المفضض، وهو يجاهد إلا يستحضر اي شيء في هذه اللحظة المؤجلة، فيما اخذ الأخر يسحق القش اليابس مقترباً من عرين الرجل المخذول قائلاً:
«أتذكره؟ راضي الطارش؟؟ ضيفك القديم!؟»

تمتم الرجل وهو يغوص في عيني الفتى ذي القامة الفرعاء.. كم هو الزمن عابر وسريع. اختلط بياض الغبش ببياض عينيه وارتعشت الحقول الفسيحة امامه ثم تضخمت القامة المستدقة مثل لعنة شاخصة، وهي تزداد انتصاباً وعناداً وثقة كلما ينحسر وقت المداهنة، ويقترب وقت عصيب يشعره بالانطفاء والتلاشي والخذلان..... ولم يملك إلا ان يقول بتسليم:
«إذن أنت ابن راضي الطارش!»

تفتق الغبش عن بياض طباشيري، واختلط بزرقة شفافة، وتجملت المراعي والحقول بأنسام باردة، وقبل ان تطير اسراب من الطيور، في اول شهيق للصباح، دوت إطلاقة واحدة، تضخم صداها المتفجر، الذي اخترق القرية الغافية، وربما الى ابعد من ذلك....

1997 / 6 / 24

(2)

عين الصباح

إنفضّ رجالٌ كثيرون بعد هشاء اليوم الأخير، وتسرّب غيرهم متسترين بالظلام آسفينَ لِما حدث لرجلٍ من قريتنا، وهو من المعتاد وليس غريباً ما حدث مع إنه موجِع. فالـ زاير رجلٌ زين في قريتنا ولا يستاخل أن يُغدَر برشقة رصاص شقّت ظهره بالكامل، إلا إنّ قضاء الله قد حلّ به لكن البرَكة في أولاده الستة الذي وقفوا في مجلس العزاء يتقبلون التعازي بوجوهٍ مكظومة. فالزاير حبل من حبال القرية والعشيرة؛ نشهد له بالرجولةِ والكرم والشهامة.

كان حاضراً في مصائبنا وأفراحنا شأنه شأن الرجال العصاميين الذين بنوا القرية قصبة قصبة وشبّة بعد شبّة، وخرج من تحت عباءته نصف شباب القرية وكبروا على يديه. وها هم يسيرون وراء جنازته منتحبين يعتصرهم الحزن وهم يزفونه بالرصاص المذنّب وقتاً شاء له أن يطول حتى المقبرة الواقعة خلف القرية.

هذا هو اليوم الأخير لمجلس العزاء.وما يزال بعض الرجال

يتناوبون في الدخول والخروج الى السرادق الطويل. ولم يكن أبناء الزاير الستة يثبتون في مكان واحد. كان الكدر والشعور بالغدر يؤرّقهم وهو يرتسم على وجوههم بشكل يجعل من رجالنا يتقمصون هذا اللون من الكآبة والشعور به. لهم الحق والله فالزاير الذي قُتِل غدرا في صباح كان ذاهباً فيه للصيد ترك فيهم شرخا امتد الى أعماقهم وأعماق الكثير من الاعمام والاخوال الذين ظلوا واجمين طيلة الأيام الفائتة وهم يستقرئون الحادثة ويشككون بهذا وذاك لكن لا دليل لهم. مع يقينهم إن دم الزاير لا يضيع مهما طال الزمن. وربما هذا وحده كان مقنعاً لرجال العشيرة المتحفزين للثأر والطلايب التي لا تُحمَد عقباها.

كانت خاتمة حياة الزاير ألماً حقيقياً عصف بالعشيرة كلها. هذا الرجل الذي نعتبره خصّاً من خصاص القرية وعموداً من أعمدتها النابتة منذ ستين سنة مرت بأيامها ولياليها الطويلة المنطوية على أحداث كثيرة وكبيرة، وكان الزاير واحداً من رجال الحكمة والعقل المدبر؛ غير إن كل شيء انتهى الآن. انطفأت سنواته الستون في لحظة غدر لفاعلٍ مجهول.

انتهى مجلس العزاء وظل نعي النساء يخفق في الليالي الباردة وصباحات الحزن تستتشري في بيت المرحوم.لكن كل شيء عاد الى رتابته في نهاية الأمر.كفّت النساء عن البكاء بعد أربعين يوم وعادت الحياة تجري كما كانت وكأنّ المُصاب لم يحدث.

لم يعد البحث عن الفاعل يجدي نفعاً لأنه فص ملح وذاب في الهور. ولم تكن الأنوف ولا العيون التي بثها أولاد المرحوم الستة بين القرى القريبة والبعيدة قادرة على أن تشم أو ترى

يمكّنها من تشخيص القاتل.
تبدّدت شكوك الأبناء الستة للمرحوم. فطووا صفحة الألم على مضض وخرجوا الى الحياة بوجوه، ربما عابسة، لكنها بالتأكيد محفورة بالألم.
مات الزاير..ومات قاتله في المجهول. لكن الأبناء الستة غير مقتنعين حتى الآن بموت القاتل في المجهول.

1997

(3)

عين الضحى

تمهلت ذاكرته في التقاط حقيقة العصف المفاجيء الذي دار حوله بشكل موجات متوالدة ومتعاقبة. ثم اضطربت وهو ينظربعينين فزعتين الى حوصلة النهر.فربما يكون قد اكتظ بطفحه وانبثقت منه جنية الصباح المتداخل في شمس الضحى المشرقة، وإلا فإنه غير قادر على أن يتحسس ذروة الطفح الأكيد للنهر الغاطس بهذا الشكل المريب الذي أحالَ جسده الى قشّةٍ تالفة وحكم على ذاكرته بالتشوش.

عندما فكّر؛ في لحظة خاطفة ومذعورة؛ أن يتخلى عن شبكته المزروعة اعترضته فورات مائية مزبدة اكثر قوة ورعونة، كانت كافية لان تحطم مداره وتزيحه الى وسط النهر قريباً من آخر عمود قلق لشبكته المتعثرة في هذه الازاحات المستمرة لهيجان النهر.

وعندما تمسك به كان جسده الذي خف اخذ يتلاشى ويتعرى. وتحته يغوص القاع في عتمات داكنة ليس بمقدوره، في هذه اللحظات الكاسحة، ان يتصور حجم اعماقها السرية، وبرغم

تشبثه الواهن بالعمود المغروز، إلا انه وجد ذلك مستحيلاً.
احس بان الشبكة بدأت سائبة وهي تلامس جسده العاري، وان خيوطها المفككة تلتف حول ساقيه فيتحقق اتصال عنيف ما كان بوسعه سوى الركون اليه في بادىء الامر والقبول بأية احتمالات للنجاة من طوق السورات المترادفة الصاخبة، فحث، بيأس، ذاكرة النهر على إمهاله لحظة مناسبة للعبور الى اية ضفة، غير ان التدفق المنهمر للنهر والتفاف الشبكة عليه وانبثاق رحى الماء بشكل فوضوي لم يجعله يرى من الضحى المشرق غير لعنة طائشة قذفته الى لجة عشيرة وهددته بالزوال.
هل يعترف ان ذاكرته اخذت تتلاشى وهو يغطس تباعاً؟ كان عليه ان يتحرر من ذاكرة قديمة ويلتقط اجزاء من ذاكرة اخرى تكونت فيه لحظة بلحظة، ربما يكون قد خطر هذا على عذابه الموتور ولكن الزفير المستمر للنهر والامواج المصطخبة المتتالية جعلت ذاكرته في منأى عن كل شيء إلا من برهات على قدر الشهيق والزفير المختنقين، وهي برهات محسوبة مع الانفاس التي اخترقها الماء بعناد، الا انه اصر، وهو رجل النهر، على ان يلتقط اجزاء مبعثرة من ذاكرة له او للنهر في مثل هذا الجنون المتفاقم في اسرع لحظة ممكنة فلعله يكون قادراً على استيعاب معضلة ضياعه الغريب على هذا النحو، إلا انه كان مبعثراً وواهناً ولم يعد قادراً على ان يتذكر شيئاً حاسماً، وكان عليه ان يتشبث بنثار القصب المتلاطم حوله ويحرر جسده من شبكة الصيد التي نمت حوله كأخطبوط وان يقاوم تدفق الماء المتساقط عليه من اية فسحة ضئيلة كان يودع انفاسه المتلاحقة فيها وان يحمي

نفسه من الاثقال الغامضة الهامية عليه بشكل جعل اجزاءه كما لو اخذت تنفصل تباعاً في لحظات لم يستطع ان يفهم فيها ما الذي جرى لاطرافه.

وحين بحث عنها كانت دوامة من عصف الماء تشتته في كل اتجاه خانق، وخيوط الشبكة تنعقد على كل لحظة كان يجد فيها برهة خلاص أولى للانعتاق من أسر الغرق الوشيك، فتأسر اطرافه ويتعاظم التثاقل، كما لو ان الماء صار موجاً من فولاذ أو كأنّ العالم جثم على صدره مرة واحدة، فانغمر بيأس اخير كمن بوغت بانفلات الفرص الممكنة التي كانت تتاح له دائماً عبر سنوات طويلة من الصيد، عبر هذا الجسد ذاته، وعبر النهر نفسه، رواحاً ومجيئاً، من والى القرية والحقل والنهر وذات الشبكة التي يدق اوتادها عاريا كطفل مفتوح العينين مثل طائر (البرينجي) وذات الموج الذي يلبط على جسده في المواسم كلها إلا هذه المرى، بعد الصباح، في الضحى المشمس في امتلاء النهر الفائض وسمكه الوفير وشبكته الاثيرة التي خدعتها جنية الصباح المتلاشي ودارت مع السورات المحمومة دورانها اللامتناهي، وكان يحاول محاولة الخلاص المضني، تحت وقت ممسوخ، يكاد يرى ملامحه بعينين تغزوهما الطحالب والاشنات المفتتة، ليتبدل لون الضحى الشمسي الى اطياف معفرة ورؤى سريعة الزوال وذاكرة خرقها الماء عنوة وشبكة حميمة توحشت آخذة بالانتفاض والالتفاف متناسلة كأنها عنكبوت خرافي بأرجل متوالدة محزّزة الحافات، ولم يبق من الضحى المشمس الا لون داكن شخص في قسوة هبوطه المرير تحت ثقل الشبكة وكان كل شيء يزداد عتمة كلما تنفصل اجزاء جديدة منه

في لحظات غادرة ما كان لها ان تكون في هذه الصورة البشعة في الوانها الخاثرة وهي تتنامى وتعتم مع درجات ثقله الغريب واحكام شبكة العنكبوت التي غطت اوردة النهر واجتاحت مسامات الماء في وقت بدا له ان كل شيء غير ممكن الان تحت وطأة الاستسلام اللا مشروط، وفيما كان جسده ينفصل واجزاؤه تتسافل الى القاع البارد، كانت ذاكرته تنمحي وتنغلق، وكانت الالوان الاخيرة المهتاجة تتغير بسرعة لا نظير لها، وفي آخر التماعة ممكنة وقبل الزوال المحتم، آخر التماعة مقلوبة من تحت السطح الراكد عليه، اعلى الماء.... في السماء الأبدية وهو يلفظ سنوات صيده الاخيرة، كان النهر يغرق فيه وتتصادم اعوامه العارية مثل السمك المسموم، فيما كانت الشبكة العنكبوتية قد احكمت خيوطها على الجسد العاري.

وكانت عين الضحى تنغلق في عينيه انغلاقاً أبدياً..

1997

(4)

عين الظهيرة

اختضت المرأة وهي تنشج متلاحقة الأنفاس ثم أحكتْ شدَ عباءتها على جسدها النحيل، فبدتْ كإنها تحضن نفسها، بينما كان الرجال المتحلقون مكتنفين بمشاعر مضطربة امام اللحظات العسيرة التي هم فيها الآن.
كانت ايديهم تتناوب في إزاحة الهواء الثقيل أمام وجه الرجل المحتضر بواسطة»المهفّات»فبدتْ كأجنحةٍ مخنولة تخلّف وراءها رفيفاً مرتعشاً من هواء حار ذي رائحة محنوقة لم يسعف الرجل المحتضر في استنشاق إلا دفقات ساخنة بطيئة أحسّها في لحظات مقتطَعة من الحياة وكإنها لهاث محموم يتسارع الى أحشائه؛ في حين ظلت الوجوه المحدقة لحلقة الرجال مثل مسوخ متبدلة لهيئاتٍ غريبة في آخر ظهيرة ملتهبة حوّلت»الصريفة»الى قبر أخذ يضيق مع الدفقات التي يحقنها الرجال بالمهفّات المرفوعة على رأسه.
عندما أراد أن يقول شيئاً ما خانته الذاكرة المنطفئة ومات لسانه فاستسلم لضعفه لا يقوى على فعل أي شيء.

حاولت المرأة الناشجة إيقاظ صوتها لكنها لم تستطع؛ وعندما أرادت اختراق حلقة الرجال وجدت هناك مَن يزهرها، فلم تملك إلا الركون الى نشيجها المتلاحق. وكانت في هيأتها المذعورة مهيّأة للعويل في أية لحظة من شأنها أن تحوّل مشهد الانتظار الغامض الى حالة انفجار عاصف؛ مما حدا بأحد كبار السن أن يذكّرها بالقدرة الإلهية الجبارة في الحياة والموت بما هدّأ من روعها قليلاً وخفف من وطأة ذعرها الى نحو أخذت تنشج بخفوت وعيناها على رجلها المحتضر وهي تدمدم: الله هو الحافظ.. ربي يسلّمك.. انه الواحد القهار.. يا رب..

إلا إن المرأة لم تستطع بعد دقائق من كبح فيض خوفها واحتقانها فانفجرت باكية وصارخة تستبق أنفاس رجلها المحتضر، فصرخ بها رجل لكنها ظلت تصرخ شائطة وهي ترى استسلام زوجها وانطفاء عينيه وسمعت أحدهم يتمتم: كان زلمة..ربي يغفر ذنوبه..فيما قال آخر: لا حولَ ولا قوة الا بالله العظيم. إنا إليه راجعون..فشقت صفوف الرجال المحلقين حوله وهي تولول فتربك الجميع، بينما تحمس الرجال في آخر لحظة ممكنة من النجاة بتسريع تحريك الهواء الجاف عبر مهفات الخوص حول وجه المحتضر.

تنامت في جو الصريفة رائحة دفينة انعتقت من مخبأ ما، لعل المرأة وحدها كانت قادرة على فهم أي شيء يتواتر مع اللحظات المغموسة بالانتظار، وكانت تحاول كثيراً أن تزج نفسها بين الحشد وأن تكون قريبة من رأس رجلها المحتضر. كفّت عن البكاء والنشيج وهي تلمح وجه زوجها وقد فزّت عيناه للحظات رآه الجميع فيها. ثم تململ جسده بشكل بطيء

وخفيف. ومنى المؤكد؛ كما بدا للمرأة؛ إن عينيه رمشتا قليلاً وإن رقبته مالت نسبياً الى وجه المرأة الخائفة، فكانت تدني وجهها اليه في محاولة بشدّ الجذوة الأخيرة في عينيه المضببتين وقد اكتست ملامحها بانتباهاتٍ مركزة، اتضحت للرجال وكإنّ الرجل سيتعافى بإذن الله في آخر لحظاته وقبل انطفائه المحتوم وإنه سيقول لها شيئاً ما، سراً ما، أو وصيّةً ما.

لم يفهم الرجال وهم يرون الكلمات تتعثر بين شفتيه الصفراوين، لكن المرأة كانت تشدّ يده المتخشبة بقوة كما لو تحثه على كلام أخير أو بأمنية الحث على الحياة الممكنة بأية طريقة، أو البوح بسر أخير، وهذا ما دفع رجال القرية والعشيرة بالخروج من الصريفة الخانقة الى عين الظهيرة الساطعة قبل تنامي الرائحة الغامضة، وكانت»المهفات»تتساقط حول الرجل الواحدة بعد الأخرى..

12 تموز 1997

(5)
عين الشفق

توقد المساء الطافح بالغروب في امتداداته الواسعة، واحتشدت الآفاق بفص الشمس الذابل كعين تالفة، ولم يكن غير الرجل الوحيد يتوسط الحقل بين السواقي المكتظة بالماء، فكانت الظلال المتقاطعة تتطاول عليه غانمة بحمرة طرية.
وكان شعور بالتسليم يطفح في داخله من تعب نهار ثقيل او من نهاية غامضة لمساء يتلون بذبول أخذ يتسرب الى اوصاله المجهدة، فكان يحجب النهر عنه بشكل لا يتوازى مع رغبته في عبوره اليومي الى كوخ صغير يضج بصغار وخبز وثغاء واحلام معلنة لاجتياز ايام تنمو على براعم جديدة، وشرائط خضراء لقمح وقصب.
وعلى غير العادة اخذ الرجل ينتمي الى لحظة الكسل المفاجأة. وتلبد النهر بغبرة الشفق المتناثر وتصلب بشكل بعث التوتر فيه فيما ظلت الطيور تتخاطف ثم تهوي بسرعة

بشكل سقوط مثير للاستغراب، فبعث ذلك تحفزاً أولياً للرجل الوحيد وسط الحقل إلا ان شعوراً طاغياً بالانطفاء غمره من جديد فترك جسده يخطو الى حافة النهر المتصلب ورأى عبر الضفة الاخرى، قريته الساكنة في هذا الهدوء الغارب، فأحس ان الوقت الرمادي يزاحمه فعلاً امام لحظات اخيرة من نهار الحقل كما لو ان الوصول الى القرية أمسى حلماً حقيقياً، وكأنما رغبته اخذت تنطفىء بالتتابع وكأنه استكان الى انطفاء جاء في موعده الاثير، ولعله احس الان قبل اي وقت مضى ان القرية صارت بعيدة تماماً وان النهر ظل يتصلب وتتباعد ضفتاه وربما كان هاجسه الاخير ان يمتثل لارادة خفية ويحقق التماس المقدس مع سرية اعوامه التي اندغمت بهذا الحقل وهذا النهر عبر عمر طويل، فانقاد الى اولى الموجات الطافية ساحقاً الدغل والطين تحت مساء مترام كأنه عش مهجور إلا انه كان يتسامى مطمئناً الى نهاية الغروب حين توضأ ليتبرد وجهه وتترطب لحيته البيضاء ثم يقف بجسده الذي احسه طرياً وخفيفاً كما لو ذابت شيخوخته في هذه اللحظات المباركة التي عادت تلتحم في داخله وتمنحه شعوراً عارماً بالألفة والمناجاة والسلام والألم المعتق وهو يتفتت منحسراً عن فص الشمس التالف وعين الشفق المطعونة.

وعندما وقف جسده تحت خيمة الاعتصار العنيد كانت عيناه تستقران على رعشة الافق في مثل هذا الصفاء المقدس والتوحد الاعزل بينما تخاطفت بسرعة غريبة اطراف الحقل وتصادمت السواقي بالنهر المتصلب والقرية الغائمة، فتحامل جسده وقتاً بدا له طويلاً وانبثقت عيناه عن براعم دمع خرجت

قهراً فاعترف في بقايا اللحظات المتوفرة من قبل الغروب. فشعر انه ضعيف امام جلال المساء والعين التالفة في الفص المفتت هناك، لكن يقظة منفلتة من عنق الافق تسامت به / مرتعشاً / دامعاً / خفيفاً / وتساقطت من حوله رؤوس القمح وقامات القصب وهي تفرش مظلاتها الخضراء، ومن تحتها تجري ريح شفيفة حفت بجسده الذي ما يزال متفتحاً قبل ان يهوي وينفصل عن حقله المرتعش ومن الجهات كلها اخذت البساتين تتفكك متمهلة ومثلها السواقي التي بدا صوت الخرير فيها كأنه نشيج مستمر، بينما دارت مراوح النخل في افق أخذ يسود وهو يمتزج بخثرة العين التالفة التي تلاشت في عش مظلم امتد الى كل الافاق كأنه عش غراب متوحش...

1997 / 6 / 9

(6)

عين الغروب

عندما غسل وجهه وأزالَ الطين العالق على ساعديه وهو على جرف النهر، كان الغروب قد حلّ على المزارع والحقول والعراء الأخضر الشاسع. وبدا قرص الشمس أحمر فاقعاً وهو يتوارى بالتدريج في أفقٍ بعيد. وحين استدار ليحمل عدّته (بندقية موروثة ومنجل محزّز وفأس باشط) توقف الغروب أمامه على نحو مفاجيء ومخيف أيضاً، وظلت المسافة بينه وبين عدّته الأثيرة مسافة ظل منسرح أمام كرة الشمس المتوارية وهي تلقي بآخر شعاع متفتت على صمت الحقول المستكينة.

أثر التريث، فقد يكون أحمق لو تصرف خارج اللحظة المنفلتة من زمنه المتبقي. وعندما التقت عيناه بعيني الكائن الرمادي المتحفز أدرك إن اللحظة قاسية ومحرجة، لم يكن خنزيراً كما تبادر الى ذهنه أول الأمر، فهذا الكائن الرمادي المفلطح كان مبللاً؛ رأى على ظهره الأحدب قشاً منقوعاً وعوالق نباتية تشي إنه خرج توأ من النهر.

ربما كان ينتظر لحظة الاغتسال التي اعتادها الرجل كلما أنهى عمله في الحقل كل يوم في مثل هذا الوقت. وعندما تحفزت ذاكرته لتلتقط شكل هذا الحيوان الغريب بملامحه البشعة وعينيه المتوقدتين، عجز للحظة عن أن يكون قد رأى مثله في مفازات الأهوار والبراري الجرداء والمزارع الفسيحة.

كان أكبر من ذئب أو كلب بري متوحش وأصغر من حصان فتي، وبدا للرجل إنه لم يكن واثقاً من إنه يستطيع فعلَ شيءٍ حاسماً إزاء لحظته المتجمدة على فكرة المواجهة المستحيلة.

كان يشعر بالتعب من شمس نهار طويل. حبّذ أن يترك الأمر يجري كما يجب بتلقائية يدرك معانيها في لحظة غير متكافئة أمام هذا الوحش الرمادي الذي بدا متحفزاً وعدوانياً منذ الوهلة الأولى. وكان في انتصابه المريب وإصراره على الإفتراس يعطي لرجل الحقل فرصة غير موجودة للخلاص، كانت عيناه الكبيرتان الجاحظتان تزدادان اتقاداً واحمراراً وفكّه المتهدل يكشف عن أنياب مبرومة النهايات وجسده الحصاني المتوتر يلوح بأنه سينقض في أية فرصة خاطفة ينتزعها على نحو مباغت أمام انصعاق الرجل وتجمده كشجرة يابسة.

عندما تقدم الحيوان ببطء خطوة واحدة فقط تكسر القصب تحت أظلافه العريضة وأحدث فرقعة مخيفة في الصمت الذي يحيط بالرجل المعزول عن عدته، فجعله ذلك أكثر حذراً وهو ينتبه لفرقعة الخطوة الثانية المدوية ويتفرس بارتباك بالعينين الداميتين والأنياب المحتشدة في الفك المتهدل، وربما تكشّف للرجل الآن وعلى نحوٍ صريح إنّ حياته كانت سريعة ولم يكن بمستطاعه أن يقبض على حكمتها إلا في اللحظة المستلّة

من أعوامه الستين. فاختلطت في رأسه صور شتى لا يريدها الآن أن تهيمن على زمن يقف على أنياب مبرومة وأظلاف تطحن العظام، وحين بحث في الخلاص وجد إن هذا الكائن الحصاني المفلطح سدّ عليه طريق النجاة بالوصول الى عدّته التي لا يفارقها عادة (بندقية ومنجل وفأس) شبّت معه سنوات طويلة ونَمَت معه في حقله المتسع دائماً ووضعت حداً لشقاوات مختلفة كان يمكن أن تحدث في لحظات الغفلة والإنهماك الجدي في الحقل.

عندما اخذ الوحش الغريب يخطو خطوات قصيرة أخرى بثبات وتصميم، كان كل شيء يتكسر في زمن الغروب النازل؛ فأدرك الرجل إنّ بينه وبين الحياة مسافة أمستْ بعيدة وطويلة غير ممكنة وأحس إنه غير قادر على استدراك ما مضى من حياته، وإذا ما خامره الخوف الحقيقي هذه المرة فلأنه أخذ يشعر حقاً بأنه يواجه مشقة الحفاظ على لحظة فاصلة من حياته. وبينما كان قرص الغروب الرخو يتوارى تماماً كان الغروب يتضامن مع لحظته المفزعة إزاء الكتلة الحصانية التي أخذت تقرض المسافة ببطء ممل قاتل على الرجل الذي دبّ الضعف في أوصاله كما لو قرر الاستسلام لبقية الحياة الغاربة، وأحس بمرارة المواجهة غير المعقولة بينه وبين الوحش المخيف الذي انبثق من آخر غروب له بعينيه الجاحظتين الملتهبتين بالجمر واللتين أخذتا تتوقدان مع مضي الثواني الموتورة وبفكّه الذي أخذ يزداد تهدلاً ليكشف عن مزيد من الأنياب المدببة، كما كشف عن لسان أصفر طويل يفرز مزيداً من اللعاب، ورأى الرجل وهو يزداد انكماشاً إنّ وجه الحيوان أخذ يزداد اتساعاً كلما اقترب منه

ساحقاً القش والقصب ليفجر أصواتاً غير مفهومة تضخمت في هدأة الغروب المنتشر في وقت بدأ يتآكل أمام الرجل وهو يعرف إنه سيدخل في نفق غادر لا يليق به. وأمام احتداماته المتزاحمة قرر المواجهة لآخر لحظة ما إن تخيل الأنياب المبرومة ستمزق جسده العجوز، وما إن رأى المسافة التي اختصرها وحش الغروب ليضع حدا أخيراً في الانقضاض الأكيد والإنتفاض المطلوب في اقل الخسائر المتاحة له. وقرر إلغاء الفاصلة الحاسمة بينهما بأية طريقة سؤيعة. فاستحضر في دخيلته وعلى نحو مفاجيء؛ لحظاتٍ أكثر خطورة، بل أكثر موتاً من هذا الموت الذي يحاصره ببطء ممض، لكنه، لثانيةٍ وجيزة، تخاذل أمام أي قرار فيه وهو يرى عُنَته تنأى عنه لمسافات صارت طويلة فعلاً أمام الأظلاف التي بدأت تسحق القصب فتنطحن عظامه، بينما ظلت العينان الناريتان تشعلان المسافة المتبقية بالإصرار على الوصول الى جسده المتخشب وتمزيق أوصاله، وهذا لم يعد خافياً على سرائره وهو يعترف مرغماً إنه سينقاد الى نهايته من دون أن يفعل شيئاً حاسماً أمام هيجان الوحش المفلطح، وما عادت القوة التي استحضرها بمثل هذا الموقف العصيب كافية لأن تزخ فيه نفحة من الشجاعة والاحتمال والمواجهة؛ فعاد الضعف يدبُّ فيه من جديد، وأخذت المسافة المتكسرة تحت الأظلاف العريضة تنحسر، فأيقن إن الحياة أضيق من ثقب الإبرة وأحسّ إنه تحول الى خشبة في جفاف الغروب وغياب الهواء البارد النقي المألوف الذي اعتاده بين هذه الحقول.

وعندما رأى إن العينين الناريتين اقتربتا كثيراً منه، وعندما رأى الأنياب المصفوفة تنفتح في آخر غروب واللسان

الأصفر الطويل يتدلى وهو يفرز فيضاً من اللعاب والزبد الأبيض، غابتفي عينيه كل الرؤى واختفت الحقول كإنما حلّ ليلٌ دامس قبل أوانه وكان لابد أن يغمض عينيه متفادياً اللطمة الأولى لجسد الوحش الهائج.

* كُتبت هذه القصص عام 1997 ولم تنشر قصصها كاملة. عدا «عين الضحى» و«عين الشفق» و«عين الغبش» التي نُشرت في الطبعة الثانية.
أما في هذه الطبعة الجديدة فقد أضيفت «عين الصباح» و«عين الظهيرة» و«عين الغروب» بعدما كانت مفقودة لتكتمل هذه السداسية في هذه الطبعة.

نصوص المعدان

في البدء «مي إيدن» فردوس مستمر 9
القسم الاول 19
أشجار البرغش 12
قصة الغياب 43
مشحوف 55
الذهب 65
أجنحة الكلاب 91
الليلة الأخيرة في حياة الأمير 125
المِعْدان 133
غناء مستمر 143
حلم سمكة 151
لص قريتنا 157
القسم الثاني 165
عزق امرأة 167
بطة 171
غدر 175
حليب للذئب 179
عرس رابع 183
تنور 187
فيضان 191
طلقة واحدة 195
طفل الماء 199
لغو 200
وفيات 201
إصبع 202
بكاء 203

حيّة 204
حريق 205
عزلة 206
بنات 207
الماء 208
حفلة 209
قش 210
ثار 211
عباءة 212
سداسية 213
عين الغبش 213
عين الصباح 217
عين الضحى 220
عين الظهيرة 224
عين الشفق 227
عين الغروب 230

Al Ma'dan

Wared Badr al Salim

المِعْدان

وارِدَ بدر السالم

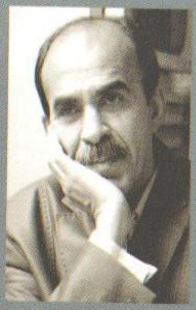

المِعْدان.. طبعة ثالثة

تعيد دار «سطور» نشر كتاب المعْدان للمبدع العراقي وارد بدر السالم بعد نفاد طبعته الثانية التي صدرت قبل أشهر قريبة، إيماناً منها بضرورة تكريس البصمة المحليّة العراقية في تقصيها الأثر السردي وهو يرسم المكان بطريقة اسطورية وسحرية وعجائبية، كما فعل السالم في هذا الكتاب الذي نال ثناء النقاد والقرّاء منذ التسعينيات الماضية حينما صدر بظروف غير طبيعية بمقدمته الشهيرة (مي إيدن) التي برع السالم في إخفاء مضمونها بالإستدراج التاريخي والآثاري والشاعري لمنطقة سكان الأهوار الجنوبية وعدّهم السومريين الأوائل وإنهم أصل الحضارة الأولى في المكان العراقي الأول.

المعدان كتاب قصصي في تنويعه السردي المتدفق؛ لكن البعض يرى إنه رواية كُتبت على مراحل ومشاهد بأكثر من مونتاج سردي، وهو استباق لروايتيه (مولد غُراب) و(شبيه الخنزير) وبالتالي فإن المعدان بوصفها قصصاً خرجت عن نطاق المألوف من الكتابة في زمنها، كانت مساحة سردية واسعة لعالم فيه من المجهول الشيء الكثير والعجائبي والغرائبي الشيء الأكثر. المعدان الكتاب الأكثر شهرة للكاتب هو الكتاب السردي العراقي الوحيد [redacted] بيئة الأهوار ومزاياها الإجتماعية والسحرية والطقوسية في [redacted] السرد القصصي.

مكتبة
الفكر
الجديد

Design: Mohamad Hayawi

سطور